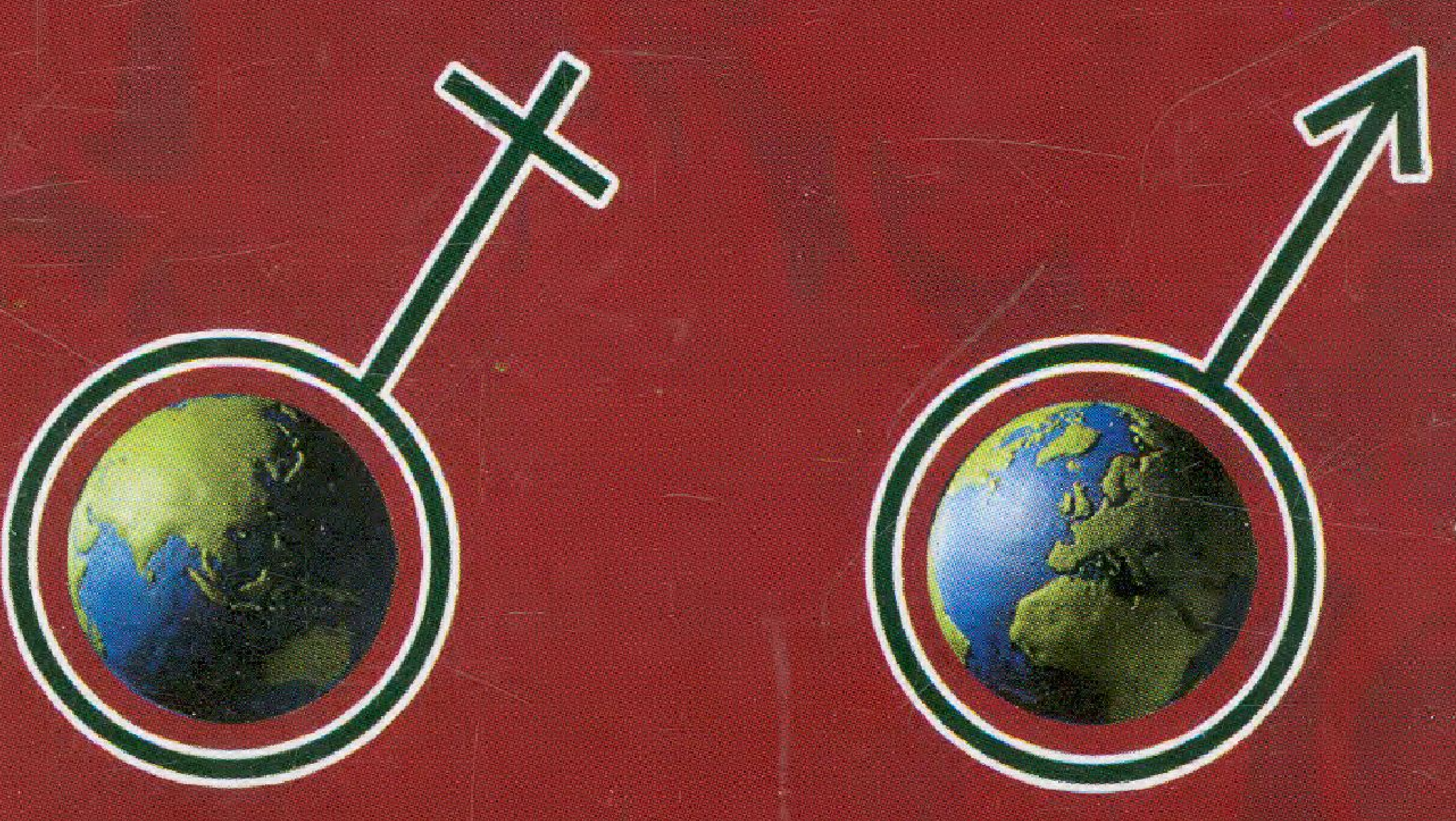
قضيتك ياسيدتى

من المسئول عنها

المرأة أم الرجل أم المجتمع





د / فينيس نيقولا

قضيتك يا سيدتي
مسئولية من؟

المرأة أم الرجل أم المجتمع

بقلم د. فنيس نقولا

مراجعة القس إميل زكي

بيانات ادارية:

طبعة أولى

الكتاب: قضيتك يا سيدتي مسئولية من ؟ الرجل أم المرأة أم المجتمع؟

رقم الإيداع: **٢٠٠٩/٣٦١٣**

المطبعة:

سنة النشر: ٢٠٠٩

المحتويـات

شرف البنـت

قديماً كانت القبائل المتحاربة تحرص على حفظ نقاء الأنساب وعدم اختلاطها حتى تضمن كل قبيلة سلامة انتماء محاربيها الأقوياء إليهـا – فالحروب التي كانت تنشب من وقت لآخر بسبب ضيق الرزق –سـواء بسبب قلة الموارد الطبيعية من ماء وزرع أو قلـة عـدد الحيوانـات المستخدمة لأغراض عدة – كانت عوامل تؤدى إلى نشوب القتال، هـذا غير أسباب عديدة منها ما هو حيوي وهام وله أسباب خطيرة ومنها مـا هو بسيط

ما يهمنا هنا هو فكرة الحفاظ علي نقاء الأنساب وعدم اختلاطهـا ، وصلتها بالحروب ، والفكرة أن القبائل كانت تفخر بمقاتليهـا الـشجعان وتعتز بانتساب أولئك المقاتلين إليها ، إلا أنه كان يحدث أحيانا أن بعض القبائل تنكر نسب أحد هؤلاء الشجعان إلى القبيلة التي من المفروض أنه ينتسب إليها وتلحقه بنسب قبيلتها بدعوى أن الأم – أم المقاتل –أنجبتـه نتيجة علاقة مع أحد رجال تلك القبيلة التي تدعى نسبة ذلك البطل إليهـا ، ومن هنا بدأت فكرة وضع القيود والحدود على علاقات الفتيات ضمانا لعدم قيام علاقات بين فتيات قبيلة ما وشباب قبيلة حتى لا ينتج اخـتلاط الأنساب، وبالطبع كانت البنت هي المسئولة الأولى باعتبار أنها هي التي تنجب الوليد وبالتالي هي التي يجب أن توضع تحت المراقبة . وهذا هو أول العوامل التي ساهمت في نشأة فكرة شرف البنت الذي مثـل "عـود الكبريت"

🕮 وقديما، وبعد استقرار الإنسان في الأمكنة التي تتوافر فيها المياه وسبل العيش والاستقرار عرف الإنسان الملكية وبالتالي التوريث فكان هذا سببا آخر لزيادة التمسك بحفظ الأنساب ونقائها وعدم اختلاطها .
وهذا عامل ثان من العوامل التي ساهمت في نشأة فكرة" شرف البنت"
🕮 وقديما كانت القوة العضلية مطلوبة ولها دور حيوي في تسيير شئون الناس ، فالزراعة والحروب وإقامة التجمعات السكنية ... الخ كلها أنشطة تتطلب جهدا عضليا فائقا فلم يكن هناك الآت ولا وسائل كافية ومتطورة تيسر العمل ، ومن هنا ظهر تفوق مكانة الرجل على مكانة المرأة وبقيت للمرأة أعمال مثل تربية الأطفال والتغذية والعناية بالبيت وهو دور يحتاج إلى حماية العائلة الواسعة و لا تقدر عليه النساء ، ومن هنا يُنظر إلى دورها على أنه اقل أهمية. هذا بالنسبة للعمل والإنتاج وعلاقته بالقوة العضلية أما بالنسبة للوضع العائلي فإن المرأة وأيضا الأطفال باعتبارهم الذرية التي تمثل الأجيال الجديدة كان كلاهما في حاجة إلى الحماية من غدر الطبيعة (فيضانات- أجواء مختلفة - كوارث طبيعية أخطار الكائنات الأخرى ..الخ) و أيضا في حاجة لبناء مكان للسكنى و خلافه و كلها أمور تحتاج في المقام الأول للقوة العضلية مع قلة الأدوات التي تعوض تلك القوة أو تحل محلها ، فكان من الطبيعي أن يقوم الرجل لأهل بيته بتوفير المأوى والحماية اللازمين وهنا لا يكون في مقدور المرأة وأيضا الطفل القيام بهذا العمل أو على الأقل جزء منه، بل إن تجنيب المرأة هذا العناء يعتبر تعبيرا عن (إكرامها) لكن البشرية تعدت هذه المراحل بكثير بل وكل يوم يزداد الاستغناء ليس فقط عن القوة العضلية بل عن العامل البشري بالأساس

الذي يحل محله الآلة والأداة حتى أن تلك الأشياء أصبحت تمثل خطورة على فرص العمل لدى القوى العاملة البشرية ، فإذا ظلت المرأة ممنوعة بل محرومة من المشاركة ومن إعطاءها فرص تحقيق ذاتهـا بـدعوى حمايتها فإن الحماية هنا تتحول إلى قيد خانق

▣ إلى أن صارت المرأة متاعا ضمن متاع الجماعة، وبما أن الأمتعة هي الأشياء التي تصلح مجالا للملكية وبالتالي افتخار كل جماعة علـى أخرى بما تملك لذلك اعتبروا المرأة (شيئا) و (مجالاً) تمـارس فيـه الجماعة التباهي والتفاخر وإظهار القدرة على التحكم والسيطرة ، فعلـى قدر سيطرة الجماعة على مقدرات ومصير المرأة بقدر ما تظهر عزوتها وسلطتها وشأنها ، وبالطبع فإن من أهم المجالات التي يجب أن تـتحكم فيها الجماعة هي حياة المرأة الخاصة وعواطفها ، وهذا عامل ثالث من العوامل التي ساهمت في نشأة فكرة "شرف البنت"

▣ أما شرف الولد، فأعتقد أنها عبارة ربما تُذكر هنـا لأول مـرة !!! فالولد لا يعيبه شيء،

▣ وقديما رأت الجماعات أن التكاثر يتم بين الحيوانات فـي موسـم معين وأن التلقيح يتوقف على قبول أنثى الحيوان لتلقيح الذكر ، وبالتالي انعكست الصورة على أنثى الإنسان وتحملت هي مسئولية احتمال إقامـة هذه العلاقات وكأن المرأة هي التي تقوم بالمبادرة -وربمـا الإغـواء- والرجل لا حول له ولا قوة ، خاصة وأن المرأة لا تتعدى أكثر من متاع بل ووسيلة لإمتاع الرجل، وهذا عامل رابع ساهم فـي فكـرة "شـرف البنت"

وقديما كان إذا أقام الرجل علاقة غير شرعية مع فتاه فإن ثمرة هذه العلاقة لن تظهر عليه بل ستظهر على الفتاة وبالتالي هي التي تحمل اللوم والعار، و تختلف عقوبة الولد الزاني عن عقوبة البنت الزانية وهذا عامل خامس ساهم في نشأة فكرة "شرف البنت"

والآن ... وفى عصرنا هذا حيث الوسائل متاحة لعدم ظهور أعراض تلك العلاقات .. وحيث يضعف بالتدريج مفهوم المحافظة على نقاء النسب ...وحيث تلعب التكنولوجيا دورها الذي يجعل الجماعات تستغني عن القوة العضلية، كما ظهر من العلوم ما يحمي عذراوية البنت وأيضا يحمي من حدوث الحمل بل حتى وسائل إجهاض سرية

فهل ستتغير النظرة لشرف البنت؟! وهل سوف تضعف الفكرة بالتدريج ؟ وماذا ستكون النتيجة لو ضعفت الفكرة ؟ هل ستعم الإباحية ؟ أم يولد نمط جديد من القيم؟

أم هل سيكتشف الناس أن الشرف سواء للبنت أو الولد له معان وأبعاد مختلفة تماما ؟!

هل يعرف الناس أن الشرف شيء غال فعلا بغض النظر عن علامات تظهر أو أسباب أنانية نريد أن نحامي عنها؟

هل يكتشف الناس البعد الأخلاقي لمعنى الشرف وهو المحافظة على نقاء الضمائر والنيات التي يضمرها الناس تجاه بعضهم البعض؟

هل تتوصل الجماعات لمفهوم جديد عن الجنس أكثر من كونه شهوة وإشباع غرائز وامتلاك لإنسان يتحدد دوره في الحياة في حدود إمتاع الآخر وإشباع شهواته؟

- هل سيتوصلون إلى أن الشرف معناه توجيه الغرائز والطبائع -سواء عند الولد أو البنت- للبناء ولإقامة علاقات تقوم على الإخلاص والحب والوفاء لبنيان كلا من الفتى والفتاة؟

- هل ستهتم الجماعات بتنمية العلاقات بين الأجيال الجديدة – بنين وبنات- على أسس الاحترام والتقدير ومحاولة اكتشاف البعد الإنساني وعدم التركيز على البعد الغريزي الذي يتشارك فيه الإنسان مع الحيوان؟!

- هنا، وهنا فقط يمكن للمجتمعات أن تنهض، عندما تكف عن أن تجعل محور حياتها هو الفصل بين (النار والكبريت) سواء بدعوى الحفاظ على الشرف أو بدعوى تفوّق جنس على آخر ، فالأولى أن نحوّل النار والكبريت ليكونا طاقة خلاقة تبنى و تعمل على التقدم.

مقدمة

قضية المرأة

تفريعات و مداخلات

قضية مكانة المرأة لم تواكب ظهور البشر في الخليقة بل ظهرت مع تطور الفهم لأدوار كلا من الرجل والمرأة تبعا لتطور ظروف المجتمعات، فهل هي قضية التفرد بالإدارة ؟ أم تحويل المرأة إلى عامل إنتاجي والضغط على العلاقة بين الجنسين لتأخذ شكل تبعية ودونية وضع المرأة كتبعية لا تستند في تبريرها على طبيعة أي من الجنسين ولكنها تبعية تستمد جذورها من رغبة الرجل في ضبط المرأة كمصدر للإنتاج وإعادة الإنتاج؟ أم أنها تغليب القوة العضلية للرجل ؟ أم حجب المرأة وبالتالي السيطرة عليها لضمان نقاء الأنساب وعدم إغواء الرجل. على كل صارت قضية مكانة المرأة (مزمنة) تلازم الحضارات والمجتمعات إلى يومنا هذا دون أن تحسم القضية من الأساس

- نضع أول ورقة في (ملف قضية المرأة) وهي تقسيم العمل وفقاً للجنس، فهل الجنس أو الفروق البيولوجية تحتم تقسيما معينا لنوعية العمل لكلا الطرفين، وتظل القواسم الفاصلة كما هي للأبد حتى مع تغير ظروف المجتمع ومع التقدم التكنولوجي المطرد في الزمن المعاصر؟ يرى البعض أن تقسيم العمل وفقاً للجنس نظرة لا تستند إلى أساس واقعي.ولا يجب أن تؤخذ على إطلاقها كحقيقة غير قابلة للنقاش أو غير

قابلة لأن نثبت عكسها، ويستند هذا الرأي على أن الفـــروق البيولوجيـــة تظهر في شكل مادي مثل القوة العضلية التي يتفوّق فيها الرجـــل عـــن المرأة و هي قصة قديمة كان لها دور رئيسي في المجتمع البدائي الذي اعتمد على القوة العضلية بالأساس لإنجاز مهام الإنتـــاج قبـــل ظهـــور الآلات أو توافرها في شكل كاف.

- ❑ ورقة ثانية نضيفها إلى ملف المرأة هو رد فعل المرأة عنـــدما تنحاز لجنسها في رد فعل ضد الانحياز الذكوري ضد المرأة، خاصـــة عندما يتم التركيز على الفروق البيولوجية فيغلّب مـــا يخـــص الرجـــل ويخفض ما يخص المرأة فهنا تحاول المرأة أن تظهر النساء على أنهـــن الجنس الأذكى والأرق والأكثر إنسانية ويمتلك إحساساً حقيقياً بالطبيعة ، كما أنها أكثر من الرجل مهارة وقدرة على اكتساب المهـــارات بحكـــم التطور [1]

– والفروق البيولوجية تحددها بحوث توضح الأسس التي يترتب عليهـــا القدرة والكفاءة من الناحية المادية عند كليهما من ناحية الجنس Sexوهذا أمر يختلف جذريا عن اختلاف الفروق من ناحية النـــوع (genderأي مذكر ومؤنث) أي الاختلاف في الوضع الاجتماعي والمواقع التي بـــين الجنسين "

– وهذا ما نراه واضحا في مجتمعات يلعب فيها كل من المرأة والرجل أدوارا تختلف تماما عما يقومون به في مجتمعاتنا وما تعارفنا عليه مـــن أدوار أعطينا لها صفة الديمومة واستحالة التغيير أو التبديل بنـــاء علـــى

---

[1] د. أحمد زيدان و آخرون، المرأة وقضايا المجتمع (القاهرة : مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية – كلية الآداب جامعة القاهرة، ٢٠٠٢) ص ٣٦.

الفروق الجنسية، فقبيلة تشامبولي في غينيا الجديدة تقوم فيها المرأة بدور الرجل طبقا للمواصفات التقليدية لدوره في المجتمعات الحضارية ، فهي التي تخرج للصيد وزراعة الأرض أما الرجل فيتولى أعمال المنزل بالكامل فيربي الأطفال ويعد الطعام بل إن المرأة تتصف بالخشونة بينما يتصف الرجل بالضعف حتى إن المرأة التي تتصف بالوداعة والرقة تعتبر امرأة شاذة بين أفراد تلك القبيلة [٢]

- لا ننكر أن المعطيات البيولوجية تتنوّع عند كل من الجنسين، إلا أن (الإنسان) بالمعنى الأشمل من مجرد ذكر وأنثى لا يقتصر في تكوينه على ما تمليه الطبيعة البيولوجية ، فالمعطيات البيولوجية إذاً وحدها لا تكفي لكي تكون مقياسا وحيدا لوضع مواصفات لكلا الجنسين فهناك عوامل مؤثرة من أهمها أسلوب التنشئة الاجتماعية والدينية وربما تفرض المتغيرات الحديثة في المجتمعات المعاصرة رؤية المجتمع ككل لدور الرجل والمرأة بناء على أسلوب الحياة التي تختارها المجتمعات لنفسها أو ربما تفرضها عليها الظروف، فلا يجب نسيان ما لحق من تغيير لدور المرأة في أوربا قبيل الحروب العالمية واستيعاب ساحات القتال للرجال وبالتالي تغير الدور المطلوب من المرأة ، وعلى نفس القياس تقوم المرأة في بلادنا بأدوار غير معتادة تقليديا في مجتمعنا قبل نصف قرن من الزمان في غياب الرجل الذي يعمل خارج الوطن، فهل من مجيب عن سؤال هل تفرض المعطيات البيولوجية على المرأة القيام بأدوار دون سواها؟ تفصيل أكثر استفاضة سوف نعرضه ضمن آراء جون ستيوارت مل بهذا الخصوص (انظر الفصل الخامس)

---

[٢] د. فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية، مكتبة الأسرة (القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣) ص ٦٤.

● ورقة ثالثة تلعب دورا أساسيا في هذه القضية وهي تحديد الأدوار فهناك تصور تقليدي أو موروث ثقافي تقليدي ثابت لا يتغير إلا بالقدر الضئيل لصورة المرأة وطبيعة أدوارها ومكانتها ، وهذا التصور يأخذ وضع الثبات حتى أن المرأة نفسها تقبل ذلك الوضع وتقنع به سواء برضاها أو بمحاولة القبول بالأمر الواقع وذلك لكي لا تفتح طاقة لا تقوى على مواجهة ما يمكن أن يدخل منها من تيارات إذا ما فتحتها .وهنا تتعايش المرأة مع معوّقات لا تعدها في مجال المعوقات أصلا مما يجعلها تشعر أنها لا تعاني من أي مشكلة بل إنها تقاوم أي محاولة تُبذل لكي تحرك إدراكها بوجود معوقات وبالتالي تعمل على تعديل الأوضاع بين الممكن والواقع والمتاح حيث توازن المرأة وضعها فتتغاضى عما يجب أن تكون عليه وترضى بما هو قائم بالفعل فلا تشعر بالحرمان من حقوقها إذا لم تر نفسها أسوأ بالمقارنة بسائر النساء اللائي يساوينها في وضعها.فالمرأة تقارن نفسها بالوضع الاجتماعي لجنسها ككل فترى أنها لا تختلف عن بقية النساء بل إنها قد تقنع نفسها أن القيود هي عين الامتيازات، خاصة إذا استطاع المجتمع أن يقنع النساء بأنهن موضع تقدير بل إذا استطاع أن يقنعهن بان ما تراه المرأة في بقية المجتمعات التي تتمتع فيها النساء بحق الوجود كفرد في مجتمع يضم رجالا ونساء على أنها قيود تقيد نمو ونضج شخصيتهن، يتعاون في هذا نظرة سلفية تشمل الفكر الديني والعملية التعليمية والسياسة الإعلامية فتكون النتيجة ثقافة منغلقة فيصبح لجام الفرس الذي يكممه هو زينته.

● وربما أن من أكثر الأسباب التي تؤدي بالمرأة إلى عدم الاحتياج إلى التغيير هي عندما ترى النساء أن التغيير يحتاج إلى مواجهة وربما

مخاطرة ليست على استعداد لتحمل عواقبها أو قد تؤدي إلـى نتـائج لا تعرف إلى أين توصلها أو قـد لا تـستطيع مواجهتهـا ومنهـا تحمـل المسئولية التي تنتج عن حدوث التغيير، فنتائج التخلص مما هو قائم قـد لا يكون في صالحها إذ سوف تتحمل تبعات ومسئوليات وضع لم تعتـد عليه .

- و تتوالى أوراق ملف المرأة : فهل المسألة مـن بـدايتها هـي الاحتياج إلى المساواة بين الرجل والمرأة أم إلى تكـافؤ الفـرص بـين الجنسين ؟ (ولم لا يكون بين الجنس الواحد) فمـع أي رجـل تتـساوى المرأة ومع أي امرأة هل تتساوى مع عامل اليومية والباعة الجـائلين أم مع وزيرة أو سفيرة؟ وهنا تبرز ملامح المشكلة بشكل أوضح وفيمـا إذا كنا سنوصـفها بأنها مشكلة مجتمع يتمسك بالنظام الأبـوي الهيراركـي التصاعدي . وهذه التسميات كلها تعني قيام نظام تتدرج فيه السلطة من القاعدة إلى أن تصل للقمة حيث يقف على رأس الهرم فرد واحد يملـك زمام السلطة بقراره الفردي ، وهذا الفرد قد يكون رجـلا أو امـرأة أم مشكلة مجتمع تتفاوت فيه الفروق بين الطبقات تفاوتا حادا ويلحق الظلـم في بعض الطبقات كلا من الرجل والمرأة على السواء وتصبح القـضية قضية مجتمع أكثر منها قضية جنس معين ؟

أين على سبيل المثال خادمة المنازل وبائعة الرصيف وفي تعبير أكثـر حداثة و" شياكة" العمالة غير الرسمية والتي تضم البؤساء من الطبقـات المقهورة والتي و للسخرية تستخرج لهـا الجمعيـات النـسائية بطاقـة انتخابية تعبيرا عن الدفاع عن مصلحة " العمالة غير الرسمية!!

حتى مشاكل العمل فيما يخص قضية المرأة لا تتناول في الأغلب سـوى مشاكل المرأة من الطبقة المتوسطة العليا أو المتوسطة الدنيا في أحـسن الأحوال. أما ما دون هذا فهي لا ترد في قائمة الاهتمامات.

❑ أما دور الإعلام فهو الآن من أخطر الأدوار في قضايا المجتمع بلا استثناء فبعد أن اتسعت الميديا بل توحشت فقد صارت تتسيد الموقف الثقافي بلا منازع ولعل العاملين الرئيسيين اللذين يمثلان خطورة حقيقية في قضية المرأة ويروج لها الإعلام هي فكرة التنميط أو توحيد الشكل لدرجة الثبات وعدم القابلية للتغيير وفكرة الخصوصية التي تلعب على وتر الغزو الثقافي أحيانا وعلى المشاعر الدينية أحيانا أخرى ،والارتباط بالعادات والتقاليد من جهة ثالثة وبالطبع فإن المرأة هي القاسم المشترك الأعظم الذي يتحمل تثبيت كلا من كوادر التنميط وأبعاد الخصوصية يساند هذه التيارات تيار أصولي ديني سواء مسيحي وإسلامي ويغذيه يمين ديني مسيحي وأيضا إسلامي . حتى الخطوات التي تُحسب في الجانب الإيجابي في القضية تراجعت للأسف تراجعا ملحوظا إلى ما كانت عليه لقرن مضى.

❑ والتنميط هو " تقديم صورة متضمنة أفكارا للفرد أو مجموعة من البشر وتتكرر هذه الصورة بإلحاح حتى تصبح لصيقة به أو بهم بينما هي لا تتضمن في الغالب الأعم حقيقتهم الفعلية وإن تضمنت جزءا منها"[٣] وتميل الثقافة الشرقية إلى توحيد النمط وتشجعه وتغذي كل المعطيات التي تكرسه ، و لا مانع من انتقاد ورفض كل من يخالف النمط ، وربما يحدث هذا لأن النمط الموحد مريح، أو لأنه يحمي مجتمعا لا يقوى على التفاعل مع المتغيرات بما يحتاج إليه هذا التفاعل من قدرة ورغبة في التغيير . ولا شك أن التنميط ووضع القوالب لشكل

---

[٣] فريدة النقاش، حدائق النساء- في نقد الأصولية،(القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ، ٢٠٠٢) ص٩٥.

الحياة بما فيها طموحات الإنسان قد يعرقل نمو الشخصية بل قد يخلق صراعا بين الفرد و مجتمعه وبين الفرد و نفسه، فالقدرات والمواهب التي يحبسها الفرد يصعب أن يقيدها ويمنعها من الانطلاق لكن الخوف من رد فعل المجتمع يخلق تحديا قد يتحول إلى صراع لا حد له

- أما الورقة التي تلعب دورا رئيسيا في قضية المرأة وإن كنت أميل أن أطلق عليها قضية المرأة والرجل فهو دور العادات والتقاليد والعرف وهي قواعد لها سطوة أقوى من القانون خاصة في المجال الاجتماعي ولا يغيب عن البال أن هناك صلة خطيرة بين الاثنين: التقليد والدين حيث يرتبطان معا ويُستخدمان أو يُستغلان تبادليا لتعضيد كل منهما للآخر و عند اللزوم لتكريس الأوضاع الاجتماعية التي يُراد لها الاستمرارية، بل القداسة فقوة العادات والتقاليد تفوق قوة الدين أحيانا كثيرة إن لم تؤثر في الدين نفسه في مجتمعات عديدة خاصة المجتمعات المغلقة والمجتمعات ذات الحضارات القديمة ، هذا إذا لم تخالف تعاليم الدين سواء في صحيحه أو كما يفسره أو يفتي فيه قيادات دينية في مرات كثيرة ومع ذلك يكون لها السيادة والغلبة

- ليس القصد أن العادات والتقاليد هي في حد ذاتها أمر مرفوض أو هي عامل تأخر، ولكنها تعتبر كذلك إذا جمدت العادات والتقاليد وصارت حارسة لمفاهيم بغض النظر عن تأثير تلك المفاهيم على الجماعة ،يحدث هذا عندما يكون هدف الجماعة هو الحفاظ على القديم حتى لو أدى إلى جمود الملَكات أو توقف نمو المواهب والابتكار أو الكف عن التأمل والعمل لأن العادات و التقاليد ذاتها كفت عن أن تتغذى بأفكار جديدة توجهها نحو أهداف إنسانية وعملية

إن ما ذُكر من عوامل وأزمات ومفاهيم تتضافر كلها معا قد تنتج وسطا وظروفا تغلق الطريق أمام المرأة مما يضيق الفرص التي تساعد المرأة على تكوين شخصية ناضجة وبالتالي مسئولة وواعية، فإذا أضفنا عامل التراث فإن عنصر الدعوة للعودة إلى الماضي فيه يمثل عاملا رئيسيا وحيويا سواء باعتباره عاملا من عوامل التراث الذي نبّجله أو باعتباره المهرب إلى المألوف اتقاء لغير المألوف. وفيما تبحث الثقافات لنفسها عن موقع لأقدامها سواء بتحدي الجديد أو بتوجيهه، فإننا غالبا نجد في القديم حماية لنا من الجديد المجهول .

- أما الإطار الذي سوف نتحرك فيه أو حدود القضية بوجه عام فهو المجتمع . فالقضية تخص المجتمع لا المرأة وحدها، فمن هو المجتمع أو ما المقصود بكلمة المجتمع هنا خاصة وأن مناقشة هذه القضية اُصطلح على أنها أساسا تدور حول طرفين وهما الرجل والمرأة. بالفعل تبدأ قضية التمييز ضد المرأة - كما يطلقون عليها- بين طرفين هما الرجل والمرأة وذلك عندما يتم التمييز بينهما بناء على الفروق البيولوجية أو ظروف المجتمعات الاقتصادية أو السياسية وحيث الاحتياج للقوة العضلية أو ظروف الحروب (راجع شرف البنت وأيضا الفصل الثاني) أو يتم التمييز بناء على اعتبارات دينية أو نصوص قانونية أو كل من هذه العوامل ، لكن سرعان ما يتورط المجتمع كله في هذه الأزمة بأعماره المختلفة ومؤسساته المتنوعة(تعليمية- دينية- سياسية - مدنية..الخ) حيث يسهم هذا التمييز في نشأة النظام الهيراركي أو الأبوي أو التصاعدي أو الذكوري أو الهرمي أو يكرّسه إن كان قائما بالفعل، وهذا الفرد قد يكون رجلا أو امرأة .. نعم فعندما

تتجمع الظروف التي تتيح لها تولي زمام الأمور فهي ستكون على رأس الهرم ، فالأمر تحول إلى (نظام) وليس مجرد تمييز بين رجل وامرأة. وماذا عن الأطفال؟ تعالوا نستعرض واحدا من المشاهد التي صارت مألوفة حتى أنها لا تثير لدى الجماعة إحساسا بالرفض أو حتى المراجعة، (فالبيه أو الباشا الصغير والهانم الصغيرة) يأمران ويتسلطان على من هم في خدمة (البيه أو الباشا الكبير) فهم لديهم سلطان رأس الهرم !! افقد صارت الهيراركية ثقافة سائدة ،و هنا لا نعدم امرأة تساند تلك الثقافة فتقف (المرأة) ضد من يحاول أن يخدم قضيتها ويتعامل مع التمييز ضدها لأن المرأة نفسها قد تشبّعت بثقافة التمييز وبالتالي بالقبول بل وبالترحاب لهذا (الهرم) السلطوي.

● الواقع أن المجتمع يضم الرجل والمرأة والطفل والأسرة والمؤسسات المتنوعة. بل يضم الجنسين في شكل علاقات تتنوع وتتباين وفقا للمجال الاجتماعي أو السياسي أو الأسري وفي كل مجال أو هيكل تتخذ العلاقة بين الطرفين شكلا يميزها عن غيرها، فهي في الأسرة غيرها في الحزب وغيرها في العمل وهكذا .

● كما أن وضع إطار لما يمكن أن يُطلق عليه (المجتمع) هنا سيضم مع الرجل والمرأة قيم الأسرة (أب أم أولاد وبنات) والعائلة (أقارب وأعمار متباينة) والجماعة ونظرة المرأة لنفسها ونظرة المرأة للمرأة وأيضا أيديولوجية مؤسسات المجتمع المتعددة (سواء الحكومية أو المجتمع المدني بتفريعاته المتعددة خاصة الجمعيات التي تتولى تمكين المرأة وأيضا النقابات والأحزاب ووسائل الإعلام والمؤسسة الدينية ونظام التعليم ...الخ) كل هذا يتكوّن من رجال ونساء وأيضا توجهات

فكرية وعقائدية من قيم وعادات وموروثات..الخ وهذه هـي التركيبة المقصودة بقولنا (المجتمع) الذي يتفاعل معا ليضع في النهاية بعضا من المواصفات التي تحكم حركة المرأة في المجتمع نتيجة لأيديولوجية ما تقترب أو تبتعد عن العدالة والإنصاف بقدر ما تكون صـادقة وحيادية وبقدر ما تكون متنبهة للسياق الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والديني ونوعية عاداتها وقيمها هذه المواصفات تتمسك بها الجماعـة وترددها ربما دون وعي أو إدراك لكل أبعادها أو على الأقـل للظـروف التـي ترتبت عليه هذه الأبعاد دون تمحيص لتصبح بعد فترة أحكاماً لا يـسهل اقتلاعها، ولتصب في النهاية في صورة ذات ملامح محددة تنطلق منها القضية ، وبذلك تتكون صورة المرأة في مجتمع ما. ونخلص من هـذا أن هناك منظومة متكاملة أي مجموعة من عناصر ذات علاقات متداخلة فيما بينها تتفاعل معا، ولذلك فإن تغيير عنصر ما يؤدي إلى تغيير بقية العناصر.

- أما الورقة التي تأخذ أهمية خاصة في هذا الملف فهي قـضية التعليم والعمل إذ يرى البعض أن منتهي آمال المرأة أن تنال حقها من التعليم مثلها مثل الرجل أو أن تتولى مناصب ما زالت مقصورة علـى الرجال، فإذا هي حصلت على هذه (الحقوق) فإنها سوف تحرز نـصرا كبيرا .

و في رأيي علينا أن نبحث أولا فيما إذا كان كلا من العلم والعمل حق أم واجب؟ وهل الغرض من التعلم مجرد الحصول على عمـل ؟ وهـل هدف العمل مجرد إيفاء خدمات و احتياجات يحتاجهـا المجتمـع عـن طريق شغل وظائف وتولي مناصب وضرورة لاستمرار الحياة و كسب لقمة العيش؟ أم أن العمل ترتبط به وتنتج عنه علاقات ودلالات ومعان؟

حتى لا يكون الكلام بلا معنى أو يكون كلاما غامضا فإننا سوف نتوسّع في هذه الورقة في الفصل الثاني.

- ورقة أخرى لا غنى عنها في هذا الملف بخصوص دراسة ما يعنيه الفرد للجماعة والعكس ، هي دراسة تضم أكثر من عنصر وتجد لها مدخلا للكلام عن عناصر و أبعاد فلسفية و اجتماعية وعقائدية ومنها:
- عنصر الديمقراطية ومدى قناعة ممارستها على المستوى الأسري قبل المستوى المجتمعي و السياسي، فعملية التحول الديمقراطي وما تتطلبه من تغيير على عدة مستويات (سياسية- اجتماعية – قيمية- فكرية) تحتاج إلى رصد لمعرفة مدى تقبّل المجتمع وقبوله للديمقراطية، ولعل الديمقراطية السياسية في مجتمعاتنا العربية هي أوضح مستوى نتيجة لتحكم الاستعمار والحاكم الأجنبي لسنوات طويلة، رغم أن بقية المستويات ولا سيما المستوى القيمي يعتبر الدافع الأساسي للتحول الديمقراطي فالقيم محرك للسلوك وتدعيم الثقافة السائدة في المجتمع، وقيمة الديمقراطية مرتبطة بالتسامح والحوار واحترام حقوق الصغير كما الكبير والسماع لرأيه وحق المساءلة للجميع وتداول السلطة لمن يكون كفؤا لها ، فهل تقبل المرأة التي تؤول لها السلطة داخل الأسرة سواء لكونها المعيلة أو صاحبة القرار نتيجة لغياب الزوج أو أي سبب آخر؛ هل تقبل أن تتبنّى القيم التي توفر جوا ديمقراطيا في البيت؟ هل تعطي للطفل داخل أسرتها حق الاختلاف والمناقشة والحوار ؟! وهكذا فقضيتنا قضية ذات شجون فهي محكومة بمنظومة أو سلسلة مترابطة تتصل ببعضها وتؤثر وتتفاعل معا .

❑ الواقع أن الديمقراطية من الناحية الفعلية وما يثبته الواقع لا تخص فقط المجال السياسي، فهي في المقام الأول ثقافة يتمسك بها المجتمع قبل أن تكون وسيلة تعاطي السياسة في مجتمع ما ، كما أنها ليست تنظيمات تنص عليها لوائح أو نصوص قوانين وبمعنى أدق الديمقراطية

لا تنشأ على يد نصوص وإنما على يد مجتمع يتمسك بها وتأتي القوانين كمقررة و منظمة لحالة قائمة تمتد من جيل إلى جيـــل ، وللديمقراطيـــة جوانب عدة فهي ليست مجرد حرية إبداء الرأي فمكونات الديمقراطيـــة تشمل حرية التعبير عن الـــرأي والعقيـــدة والفكـــر وتـــداول الـــسلطة والمشاركة في صنع القرار وأيضا حق المساءلة

- على أن المجال السياسي ليس هو المجال الوحيد للديمقراطيـــة و الواقع أنه يصعب فعليا أن يكون هناك ديمقراطية قائمـــة بالفعـــل فـــي مجتمع ما على أن تقتصر على مجال واحد فالديمقراطية الحقيقيـــة ذات مجال واسع بل شامل لكل مناحي الحياة وإلا فهي فكرة ليس لها وجود على أرض الواقع . الديمقراطية ثقافة حياة يوميـــة وأســـلوب تعامـــل وليست مجرد قواعد أو تنظيمات اجتماعية أو سياسية.

- و من منطلق أن الجمع بين دراسة الفرد للجماعة والعكـــس عنـــصر تتجمع عنده أنواع متباينة من العلـــوم والفلـــسفات والعقائـــد والعـــادات والتقاليد..الخ فلا غرابة أن نجد بعض الكتابات تعالج قيمة الجمال في مجال الكلام عن العلاقة التي تربط الجنسين فيقول إميل توفيق في كتابه (حواس المدنية) " إن أروع المشاعر الجمالية التي تربط الرجل بالمرأة هي تلك التي تبعثها حياتهما المشتركة المجاهدة في سبيل مُثل ســـامية أو أفكار يكرسان نفسيهما من أجلها فتبدو الحياة أمامهما شيئا متحركا حيـــا يشتركان معا في التطلع إليه ثم العمل على تطوره ونموه فيتغلبـــا علـــى الظروف مرة وتغلبهما الظروف مرة أخرى، إلا أن الحياة تتجدّد أمامهما أيا كان موضوع هذا الجهاد(تربية أولاد- عمل- رسالة يحيـــان مـــن أجلها - جمع شمل أسرتيهما ..الخ) في كل هذه الصور يتطور الانسجام بين الاثنين إلى مشاعر رائعة تأخذ صورة من حب الله للبشر، لأن هـــذه المشاعر تغني الحياة بقيم عميقة وتعطي للحب المجرد بعدا جديدا يرتبط

بحب الحياة في ما يمارسه البشر من هوايات ومُثل وأفكار ورسالات ذات قيم خالدة [4]

هذه الصورة التي قد يراها البعض نوعا من الخيال أو الأدب الذي يُقرأ ولا يُعاش هي صورة تتوافر فقط في مجتمع يعطي للبشر حرية حقيقية وليست حرية كاذبة عرجاء تقود المرأة إلى حياة عابثة والرجل إلى مادية طاغية فتتحطم القيم وتنهار معنويات الحياة "

- أما ورقة التأثيرات الدولية فهي عنصر مهم لا بد من إضافته لملف قضية مكانة المرأة و خاصة الأبعاد الثقافية للعولمة، بعد أن جعلت ثورة المعلومات كل الأطراف على صلة ببعضها ، هي ثورة تضع نقاطا على حروف كثيرة لم يكن لها معنى وقد تحذف نقاطا من على حروف كثيرة كان لها معنى وقد تحذف حروفا بالكامل مما يمكن أن يكون له معنى، فتحدث البلبلة أحيانا وهنا تتشابك الآراء والقيم والهويات ومبادئ الأديان والخبرات الإنسانية .

فالثقافات الغربية التي تؤثر على القضية سلبا أو إيجابا هي نفسها الآن في صراع مع بعضها البعض فثورة الاتصالات التي اجتاحت العالم كله تحاول الثقافة الأمريكية من خلالها أن توّحد النمط الثقافي ليصبح نمطا أمريكيا وتزاحم أوربا التي أصبحت معرضة لخطر التهميش أمام الثقافة الأمريكية و نمط الحياة الأمريكي لكن الأمر لا يخلو من حالة من اختلاط الآراء والقيم والشد والجذب بين الهويات والخصوصيات وبالطبع فإن القيم الخاصة بالأسرة والمرأة على الأخص لها نصيب وافر في تضارب تلك التيارات، فالنمط الثقافي يتحرك من خلال أشكال الاستهلاك و أنماطه وأسلوب التفكير والتعامل مع الآخر وكل أشكال

---

[4] إميل توفيق، حواس المدنية – الفن- الجمال- التربية (المقتطف، القاهرة: ١٩٥١) ص ٤١

النشاط الإنساني في شكل تيار ضاغط يحاول صياغة نمط موحد للمجتمعات المختلفة. ولا شك أن المرأة هنا تعتبر عاملا هو فاعل ومفعول في نفس الوقت تحركه الأدوات الثقافية المتنوعة بداية من الإعلانات ومرورا بالخبرات الإنسانية المتنوعة و المبادئ الحرية وحقوق الإنسان وربما انتهاء بتحريك بعض المبادئ الدينية أيا كانت سواء في مساندة لتلك المبادئ أو في معارضتها.

قد يرى البعض أن المرأة المصرية أبعد ما يكون عن تأثير هذه التيارات أو هي على الأقل مهمومة بلقمة العيش أو تربية الأبناء أو حتى البحث عن تكوين أسرة والحصول على زوج في ظروف تأخر سن الزواج أيا كانت أسبابه، ناهيك عن المرأة في الطبقات الفقيرة والأسر التي تعاني من الأمية ، وهذا الرأي لا يخلو من الصحة في جانب ما وهو الانشغال والاستغراق في حل بعض من التعقيدات والتشابكات الحياتية التي تبدو أنها بلا حل ، أضف إلى ذلك أن قضايا الحريات والممارسات الديمقراطية لا تأخذ أولوية كبيرة على الساحة للآن، فما زالت قضايا التنمية تأخذ الأولوية و التي تتزايد مع تزايد الأزمات الخانقة، لكن ليس معنى هذا أن المرأة المصرية بعيدة عن تلك الثقافات التي تتصارع على الساحة مثل "حقوق الإنسان" أو مشاكل النساء الخاصة "بالنوع" أو "مشكلة الختان" أو غيرها؛ هي فقط تأخذ أولوية متأخرة، لكن العقلية النسائية في الغالب تتعاطف مع تلك الثقافات بشكل كبير[٥].

- أما عن مصادر المعرفة والخبرات بجانب التعليم في التنشئة الأولى فنجد أن تحصيل المعرفة وتراكم الخبرات أمور تلعب دورا حيويا في حياة الفرد، فمن هم الأشخاص الذين يوجهونها الآن؟

---

[٥] أحمد زايد، المرجع السابق ص ٢٤٦.

- توصلت بعض الأبحاث الخاصة بتحليل واقع المرأة العربية في الحياة العامة[٦] إلى نتائج تستحق الاهتمام سواء من ناحية الخبرات التي أثـرت في حياة الفتيات أو من ناحية الأفراد الذين لعبوا دورا في تنمية الخبرات وتطوير الشخصية فقد أوضحت إحدى الحالات البحثية أهمية دور الأب الريفي البسيط الذي أصر على تعليم بناته حتى لو اضـطررن للانتقـال لبلدة أخرى بها مدارس ، كما تأثرت بعض الفتيات مـن سـعي الآبـاء البسطاء إلى تلقي الثقافة عن طريق وسائل الإعلام و البرامج الثقافية بل وبعضهم كان يحث بناته على اقتناء الكتب ومشاركتهن في تتبع مـسار الأحداث العالمية .

–و أحيانا كانت شخصية الأم المستنيرة هي أهم الدوافع الإيجابية لدخول الحياة العامة أو الانخراط في العمل العام حيث كانت الأم هي مصدر التمكين والتشجيع.

–و أشارت بعض الحالات إلى دور الجدات والأجداد والمعلمين كعامـل تشجيع ومصدر للخبرة و في أغلب تلك الحالات أكدت الفتيات علـى أن هذه الشخصيات لم تكن على قدر عال من التعليم بقدر مـا كـانوا هـم أنفسهم يسعون لتثقيف أنفسهم بما أتيح لهم من وسائل إعلامية أو متابعة سير الأحوال العامة[٧].

على كل,

فهذا الكتاب هو محاولة لإلقاء نظرة أوسع وأشمل على قـضية المـرأة فالواقع أنه لا جديد يمكن أن أتناوله في هذا الكتاب سوى أن أحـاول أن أقيم علاقة بين محاور القضية ثم أطرح القضية بجملتها علـيكم أنـتم : سيداتي وآنساتي وأيضا سادتي فالقضية قضيتكم في المقام الأول:

---

[٦] د. أحمد زايد، المرجع السابق، ص ص ٣١٧-٣٢٤.
[٧] انظر نفس المرجع.

• فبالنسبة للمرأة فهناك تساؤلات عليها أن تجيب عنها مثل : كيف ترين نفسك وما هو الدور الذي تتطلعين لأن تقومي به وما شكل العلاقة التي تتصورين أنها تصلح مجالا لنمو صحي لشخصيتك ونمو أسرتك ومجتمعك ... كثير من الأسئلة التي ستفرض نفسها ، وقد نجد إجابة لبعضها أو قد لا نجد وربما أن الأسئلة نفسها سوف تثير أسئلة جديدة

• وبالنسبة للرؤية التي نرى بها ما هية وشكل العلاقة بين الرجل والمرأة فلعلها تمثل محورا أساسيا في هذه القضية ، فهذا المحور إذا اتفقنا على معطياته من البداية سوف يكون أساسا نبني عليه حجج وأسانيد القضية وبالتالي ينتهي بنا إلى (حكم) يتفق عليه جميع الأطراف. على أن يؤخذ في الاعتبار أن المجتمع بجملته -كما أرى - طرف يجمع أطرافا عدة تشارك في وضع تصور للحكم في هذه القضية.

✍ على أن الملحوظة التي يجب أن نلتفت إليها هنا هو تاريخ الاهتمام بقضية المرأة يرجع إلى تاريخ قصير نسبيا فهي ليست قضية ميئوس من تحقيق نتائج إيجابية بخصوصها فلم يتوجه الاهتمام إليها قبل قرن من الزمان وما زالت المحاولات مستمرة، فالاهتمام بعدم المساواة النوعية بدأ منذ أواخر القرن الثامن عشر حيث تطور من مجرد محاولات لتغيير الصيغ القانونية إلي جهود ممتدة في كل مجالات الحياة

✍ أما الملحوظة الأخيرة والمهمة فهي أن القضية ليست قضية مزاحمة جنس لآخر ، فالمرأة ليست ضدا وليست منافسا أو مزاحما(فهو وهي) معا يعني (إنسانا)

♥ الذي لا يكمل إلا (بهو و هي)

♥ والذي لا يرتفع إلا (بهو وهي)

♥ والذي لا يسعد إلا (بهو وهي)

الفصل الأول
المرأة في الشرائع
و الحضارات القديمة

تباينت مكانة المرأة في الحضارات القديمة حسب ما تعددت الظروف والأحداث في تلك الحضارات والثقافات فهناك حضارة تميزت بنوع من الاستقرار مع ما يصحب ذلك الاستقرار من تشريع وقوانين، وهناك أديان قدست المرأة باعتبارها رمزا للخصب أو أصل الحياة ،كما أن هناك حضارات لم تشهد استقرارا وتميزت بتوالي الحروب أو الترحال ، وهكذا اختلف نظام الحياة الاجتماعي وبالتالي تعدّدت مكانة المرأة وفقا لكل موقف على حدة

• إن تاريخ البشرية متصل خاصة في ما يتعلق بالحياة الاجتماعية وما تتأثر به بل وما تستحدثه الأوضاع الاجتماعية نفسها من عادات وتقاليد وتراث وأعراف و قواعد قانونية ..الخ مما يعطي تنوعا ، فالخبرة الإنسانية متشابكة و يشهد الواقع العملي في حياة أي شعب بهذا فالظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية.. الخ تتفاعل معا في آن واحد وما التقسيم لأي منها سواء من ناحية الموضوع أو الفترة الزمنية إلا لغرض تسهيل الدراسة وإلقاء الضوء على جانب ما .

• ومن هنا فإن دراسة قضية ما يحتاج إلى إلقاء الضوء على الماضي مما يوفر للدارس رؤية أعمق وأشمل وتمكنه من وضع علامات إرشادية لما هو آت، ومن هنا تأتي أهمية قراءة مركز المرأة في الحضارات القديمة والشرائع والفلسفات حيث نجد حضارات أعطت للمرأة حقوقها وبعضها قدسها إلا أنه وفي العموم يجب أن نعلم أن المرأة حتى في الحضارات التي أعطتها حقوقها لم تنصفها إنصافا كاملا، فقد تقلبت حالة إنصاف المرأة بين التكريم فترة وإذلالها فترة أخرى وفقا للمعطيات في كل عصر و مكان.

• وعند النظر في مكانة المرأة في عدة ثقافات وديانات فإننا نرى أن المجتمع الأمومي احتل حقبة من الزمن حيث كان الأطفال ينتسبون للأم بل كانت الإلهة نساء وتمتعت النساء بحقوق واسعة في ظل المجتمع الأمومي إلا أن ذلك المجتمع انتهى وظهر المجتمع الأبوي حيث أخذ الرجل مكانة الصدارة في المجالات القانونية والاجتماعية والاقتصادية

المرأة في بعض الديانات

▪ **من الديانات الفارسية الديانة الزرادشــتية** : فــلأن المــرأة رمــز للخصوبة فقد كانت تلقى معاملة أكثر اعتدالا وإن اعتبرت كائنــا غيــر طاهر.

▪ أما **المانوية** فقد دعت للرهبنة حتى يتفادى الرجل التعامل مع النساء

▪ و جمعت **المزدوكية** النساء والعبيد والإماء كثروة تخص الرجل

▪ **الديانات الهندية:** تأثرت بأسطورة الخلق التي تنادي بأن المرأة خُلقت من القصاصات والجزازات التي تناثرت من عملية الخلق السابقة. حيث كانت مواد الخلق قد نفذت في صياغة الرجــل وبــالطبع كــان لتلــك الأسطورة تأثيرها على مكانة المرأة المليئة بالتناقضات ، ومع تعاقــب الحضارات في تلك البلاد تنوع معها شكل التعامل مع المــرأة وتــراوح وضعها بين مملوكة للزوج الذي تُحرق معه حية بعــد وفاتــه وبــين تكريمها بل وعبادتها باعتبارها أصل الحياة

❑ **أما الديانة اليهودية:** فقد كانت مكانة المرأة عالية في سياق الأسفار الخمسة من التوراة لكن مكانتها تدهورت وأيضا تراوحت بين إعطائهــا بعضا من حقوقها وإنكار أي منها حسب رأي المعلمين وتباين مدارسهم الأخرى وفي التلمود حتى أصبحت ملكاً خالصاً للرجل.

❑ و أعلت **المسيحية** من شأن المرأة في البداية حتى أن النساء دخلــن في دين المسيح أفواجاً لكن التعليمات اللاحقــة والطقــوس والــشريعة الروحانية، والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية القائمة قلصت كثيراً ممــا أعطاه المسيح للمرأة[٨]

---

[٨] فريدة النقاش المرجع السابق ،ص ١٢٥.

❑ وفي الإسلام:

تقول النقاش: "اختصر الفقهاء معظم التشريع القرآني المتعلق بـالمرأة، وحصروه في موضوع الحجاب، وكأن بعض الفقهاء لم ير في المـرأة إلا جسدها الذي يجبرها علي الانزواء في بيتها ويعزلها عن مجتمعهـا، ويحولها أمة أو رقيق"

وهكذا تراوح وضع المرأة في الأديان القديمة " فإن أعطاهـا الـبعض حقوقها لكن لم تنصفها إنصافا كاملا وتقلبت حالة إنصاف المـرأة بـين التكريم فترة وإذلالها فترة أخرى "

المرأة في بعض الحضارات القديمة :

و إن كان للديانات توجهها فإنه بالقطع تأثرت و أثرت في الحـضارات المتنوعة ولذلك سنعرض هنا لبعض الحضارات و هي بوجه عام أمـم كانت تعيش تحت سيطرة القـانون أو الكتـاب ، مثـل المـصريين و الكلدانيِّين والرومانيِّين واليونانيِّين .

❑ ***المرأة في الحضارة الفرعونية:*** مختلفة عنها في بقية الحضارات فقد كان لها احترام كامل وصل إلى حد التقديس والعبادة، فقد كان لها حـق اختيار الزوج وتطليقه وكانت متساوية مع الرجل في الميراث وكان لها حق العمل ، لأن المجتمع الفرعوني كان يحمل نظرة خاصة للمـرأة إذ يعتبرها هي معمل الرجال فهي التي تنجب الأيدي العاملة والجنود فـي دولة تحتاج إلى هذه الفئات، لذا كان لها مكانة خاصة وصلت إلى حد أن اعتبروها إلها كما في حالة ايزيس التي تعتبر إله النيل لـدى الفراعنـة ومصدره من دموعها نتيجة لبكائها على زوجها ، وقد حكمـت مـصر عدة نساء منهن زوجة أمينوفس وأم أخناتون ونفرتيتي زوجة أخنـاتون وكيلوباترا[٩]".

---

٩ http://mook٩٧.maktoobblog.com/

حظيت المرأة في تلك الحضارة بمكانة سامية وعلى حد قول "ماكس ميلر" ليس ثمة شعب قديم أو حديث رفع منزلة المرأة مثلما رفعها سكان وادي النيل".

❑ حضارة ما بين النهرين

من الحضارات القديمة التي وصلت لدرجة من الرقي حيث ظهرت على ضفتي نهري دجلة والفرات المدن مثل سومر و أكاد و بابل و نينوى وأشور و أور وغيرها ، ومنها خرجت للبشرية أولى الكتابات باللغة المسمارية فسجل الإنسان تفاصيل الحضارة ونصوص القوانين دامت حضارة ما بين النهرين لأكثر من ثلاثة الآف سنة حضارة واحدة غير متجزئة ، فرغم تعدد التسميات التي صاحبت تغيير الحكم من مدينة إلى أخرى ومن سيطرة إلى أخرى (السومريون سميوا نسبة لمدينة سومر ، والأكاديون نسبة لمدينة أكاد ، والبابليون نسبة لمدينة بابل ، والأشوريون نسبة لمدينة آشور ،وعندما سيطر الكلدانيون على الحكم كانت بابل هي عاصمتهم) فالشعب هو نفسه والحضارة هي امتداد لهذا الشعب الذي بنى حضارة بدأت منذ حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م. إلى سنة ٥٣٩ ق.م .[١٠] و الآن نلقي بعض الضوء على موقع المرأة في بعض الحضارات .

❑ أشور:

مملكة أشور ومملكة بابل في بلاد ما بين النهرين وهي موقع كلا من مملكة أشور وبابل، حيث تقع أشور شمالا وبابل جنوبا، مع ما تضمه

---

[١٠] http://forum.sh٣bwah.maktoob.com/t٧٧١٤٥.html

أحيانا من توسعات نتيجةً لإغارة هاتين المملكتين على الدويلات الصغيرة المجاورة. مع تبادل السيطرة بينهما حسب ما يقوى ملوك أحد الطرفين .

- و أشور مدينة قديمة في سهل "دجلة" بنيت في العهد السومري لكي تصد الهجمات التي تأتي من الشمال وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلي إلهها المحلي الإله "أشور" وبقيت "أشور" عاصمة جنوبية ومدينة "نينوى" عاصمة شمالية .
- وكانت البلاد موضع صراع بين الإمبراطورية المصرية، كما كان للأشوريين حروب طويلة مع العبريين ، وقد أدى انهيار الإمبراطورية المصرية ، والإمبراطورية الحيثية إلي ازدهار أشور . وقد أدت هذه الصراعات مع طبيعة البلاد الجبلية إلي تكوين شخصية أشور الحربية[11].
- تغير وضع المرأة من مرحلة لأخرى ،ففي العصر الأول من عصر الحضارة الأشورية كان للمرأة حق امتلاك العقار والبيع والشراء والتجارة وعقد الصفقات وامتلاك الأختام الخاصة بها ولم يكن هناك قيود تمنع المرأة من العمل بشتي المهن ، وكأم و ربة بيت و امرأة عاملة كانت صناعة الغزل والنسيج أهم الأعمال التي تمارسها المرأة داخل المنزل واشتهرت نساء كنعان بالملابس الجميلة الملونة، وتأكيد سفر الأمثال على تعلم المرأة فن النسيج ، والتجارة يرجع إلي التأثير الكنعاني .و أعطيت لها مرتبة أعلى من ذلك وهي الكهانة فقد أصبحت المرأة أعظم الكهنة. إلا

---

[11] د. سوزان السعيد يوسف، المرأة في الشريعة اليهودية-حقوقها وواجباتها ، دراسة مقارنة مع حضارات الشرق الأدنى القديم(دار عين ، القاهرة: ٢٠٠٥) ص ٣٧.

أن ذلك تدهور في أواسط العهد الأشوري، فضاع كثير من حقوق المرأة ولم يبق لها إلا حق العودة إلى منزلها في حال طلاقها من زوجها أو امتلاك العبيد إذا كانت مهداة له من أبيها أو أحد أقاربها ، إلا أن هذه الحال لم تدم طويلا حتى عادت مكانة المرأة إلى ما كانت عليه وأصبحت تزاحم الرجل حتى في أمور السياسة إلى الحكم ومن أشهر من حكمت دولة الأشوريين هي سميراميس والتي حكمت الدولة حتى تنازلت عن الحكم لولدها [١٢].

- والمجتمع الأشوري باعتباره مجتمعا حربيا كان يشجع على الإكثار من النسل ، والمرأة التي تجهض نفسها كانت تتعرض لأشد العقوبات قسوة ، وقد انتشرت ظاهرة تعدد الزوجات بسبب الرغبة في الإكثار من النسل [١٣].

❑ **الكلدانيُّون** : تحت حكم شريعة (حامورابي) حيث حكم عليها بتبعية المرأة لزوجها ، وسقوط استقلالها في الإدارة والعمل ، حتى أن الزوجة لو لم تطع زوجها في شيء من أمور المعاشرة ، أو استقلَّ بشيء فيها كان له أن يخرجها من بيته ، أو يتزوج عليها من جهة أخرى تضمنت شريعة حمورابي بنودا عديدة تتعلق بالمرأة ومثالاً من تلك الشريعة أن المرأة كانت تتبع زوجها من دون أي استقلال في الإدارة أو العمل ، حتى أن الزوجة إن لم تطع زوجها في أي شيء من أمور المعاشرة أو استقلت بشيء من الفعل ، كان للزوج أن يخرجها من بيته أو يتزوج عليها ويعاملها معاملة الجارية ملك اليمين

---

[١٢] http://mook٩٧.maktoobblog.com/٨٠٤٦٩٠

[١٣] د. سوزان السعيد، المرجع السابق ، ص ٣٨

وتفقد بذلك حريتها. ثم أنها لو أخطأت في تدبير البيت بإسراف أو تبذير كان له أن يرفع أمرها إلى القاضي ثم يغرقها في الماء بعد إثبات الجرم وقبل القضاء[14] .

و هنا نرى تراوح وضع المرأة في الحضارات القديمة بين الاعتـراف بمكانتها وحقوقها و إنكار مساواتها بالرجل وإنكار أغلب حقوقها .

❑ **السومريون:** كان للمرأة حرية ممارسـة التجـارة وإدارة إعمالهـا والبيع والشراء وامتلاك العقارات وكان لها الحق فـي الموافقـة علـى الزوج أو رفضه ، وإذا مات زوجها لا تورث كالمتاع بـل لهـا حـق المسئولية عن القصر من أبنائها وإدارة أمورهم بعد موت زوجها ، بـل ولها أن تشارك في المجال السياسي حتى انه في فتـرة مـن الفتـرات حكمت دولتهم امرأة وهي الملكة كوبابا والتي كانت في الأصـل بائعـة خمور "، بالرغم من أن المجتمع السومري مجتمع ذكوري أبوي أي أن السلطة الأولى للرجل بصفته الأب إلا أنه لم ينتقص من دور المـرأة ، وان كانت قد تباينت حقوق وحرية المرأة في العهد السومري إلا انه في العموم كان لها حقوق وحرية علت في فترة وتدنت في فترة أخرى [15].

تقول د. سوزان السعيد " في الحضارة السومرية تولت المـرأة منـصب الكهانة وهذا المنصب يصدر به مرسوم ملكي لمن يتولاه" .

- ولنا أن نتصور مدى المكانة التي وصلت لها المرأة في هذه الحضارة فهي تتولى منصبا من أعلى وأقدس المناصب في تـاريخ الحـضارات القديمة ، وهي لا تنتزعه أو تستولي عليه وإنما يصدر به مرسوم مـن

---

[14] http://www.٧zeenuae.com/vb/archive/index.php/t-٧١.html
[15] http://mook٩٧.maktoobblog.com/٨٠٤٦٩٠

الملك رأس الدولة أي أن مشاركة المرأة هنا تلقى اعترافا ممـــن يمثــل النظام نفسه وبالتالي هو إقرار من الكيان كله . وتضيف السعيد ، : "أما في المجال العام فقد وصلت المرأة إلى منصب الملكة كما تمتعت بحرية العمل وحق الامتلاك دون أن تقام عليها أي وصاية كما أعطاها القانون الاستقلال المالي (أي الملكية الشخصية) وهو ما لم يحدث فـــي ظــل الشريعة العبرية حيث كانت المرأة تخضع لوصاية الأب أو الزوج ماليا أو على المستوى الشخصي" [١٦].

- "ولم يكن السومريون يفضلون تعدد الزوجات ، والزوجة الثانية كانت تأتي في مكانة أقل من مكانة الزوجة الأولي ويكون عليها خدمة الزوجة الأولي . وفي بعض الحالات كان الزوج يُمنع من أخذ الزوجة الثانيـــة إذا كانت زوجته من احدي الكاهنات ، وغالباً كان اتخاذ زوجة ثانيـــة لا يحدث إلا في حالة عقم الزوجة أو مرضها . ويمنع من طلاق الأولي .
- والقانون السومري لم يكن يلزم بعقاب الزوجة الزانية ، بـــل يتـــرك ذلك لإرادة زوجها ، ولم تكن العقوبة قاسية كما هي في القانون السامي ، وغالباً ما كان الزوج يعوض بمبلغ من المال .
- وكان القانون يمنع الرجل من معاشرة امرأة زانيـــة ، فـــإذا طلـــق الرجل زوجته بسبب الزنى لا يسمح لـــه بالزواج ممن زني بها وهـــذه المادة التي حرص عليها مقننها على مصلحة الزوجة لا يوجد لها نظيـــر في الشرائع السامية . "[١٧].

< [١٦] د. سوزان السعيد، المرجع السابق ، ص ٢٨-٣٧

[١٧] د. سوزان ، المرجع السابق ص ٢٨- ٣٧

• وورد في القوانين السومرية ما يحمي المرأة في حالة طلاقها وذلك بأن فرضت على الرجل غرامة في حالة ما إذا قام بتطليق زوجته سواء كان قد تزوج ببكر أو سبق لها الزواج ، هذا بخلاف الشريعة اليهودية التي تجعل مؤخر صداق الأرملة نصف مؤخر صداق المرأة التي لم يسبق لها الزواج. وكان القانون يفرض على الزوج ترك المنزل وفقدان حقوقه على الممتلكات وبقاء الأبناء مع الأم .

أما قوانين الميراث السومرية فلم تفرق بين المرأة والرجل ولا بين أبناء ذكور وإناث.

❑ في بابل كانت الآلهة أنثى:

• عشتار من أهم الآلهة البابلية وهي إلهة أنثى ، وقد منح القانون البابلي للمرأة قدراً كبيراً من الحرية والاستقلال فكانت تمارس الأعمال بلا قيود في العمل ، و تتولي المناصب المهمة. وتمارس التجارة وتشارك الرجال في أداء الطقوس الدينية وفي التواجد في المعبد ، والاشتراك في الأعياد والمناسبات الرسمية وقد اهتم حمو رابي اهتماماً واضحاً بالقوانين المتعلقة بالأسرة وحاول أن يحمي الضعفاء من اليتامى والأرامل . وكانت البنات تتلقى العلم في المدارس جنباً إلي جنب مع الصبية والأساس عندهم الزواج من امرأة واحدة منذ العهد السومري ، والأكادي ، ولم يُسمح باتخاذ زوجة ثانية ، إلا في بعض الحالات مثل : مرض الزوجة ،أو عقمها ولا يتم ذلك إلا بعد موافقة الزوجة ، فإذا رفضت يكون من حقها أ، تحصل على الطلاق. و كان كل من الرجل والمرأة في يده سلطة التطليق . ولكن لم يكن في استطاعة المرأة أن تعطي وثيقة الطلاق لزوجها.

• وكان التسري معروفا في المجتمع البابلي لكنه كان بدافع التغلب على مشكلة عقم الزوجة وفي كل الأحوال تخضع السرية لسلطة سيدتها وفي

بعض الأحيان كانت الزوجة تشترط في عقد الزواج ألا يتخذ الزوج سرية أو زوجة ثانية وكان هذا متبعاً في مصر أيضاً[18].

- في المجتمع الفارسي عرفت المرأة الحجاب والحريم وهي ممارسات لم يعرفها العرب سواء قبل الإسلام أو أيام الخلافة .

- **في عصر الرومان**

وأما الرومانيُّون فهم من أقدم الأمم وضعاً للقوانين المدنية ، فقد وضع فيها القانون لأول مرة حوالي سنة أربعمِائة قبل الميلاد ، ثم أخذوا في تكميله تدريجاً .

– وبالجملة كانت المرأة عندهم طفيلية الوجود ، تابعة وإرادتها بيَد ربِّ البيت ، من أبيها إن كانت في بيت الأب ، أو زوجها إن كانت في بيت الزوج أو غيرهما .

– فربَّما باعَها ، وربَّما وهَبها ، وربما أقرضها للتمتُّع ، وربما أعطاها في حقٍّ يراد استيفائه منه كدين وخراج ونحوهما ، وربما ساسها بقتل أو ضرب أو غيرهما .

– كما أن بيده تدبير مالها إن ملكت شيئاً بالزواج أو الكسب مع إذن وليّها لا بالإرث لأنّها كانت محرومة منه ، وبيد أبيها أو واحد من سراة قومها تزويجها ، وبيد زوجها تطليقها .

- **عصر الإغريق**

حواء في عهد الإغريق كانت مسلوبة الإرادة في كل شئ .. وخاصة في المكانة الاجتماعية .... فقد حرمت من القراءة والكتابة و الثقافة العامة .... وظلمها القانون اليوناني فمنعها من الإرث كما أنها كانت لا تستطيع الحصول على الطلاق من زوجها وعليها أن تظل خادمة مطيعة

---

[18] د. سوزان السعيد ، المرجع السابق ص ٥٣- ٥٧

لسيدها ورب بيتها ... وينظر إليها كما ينظر إلى الرقيـق، ويـرون أنّ عقلها لا يعتد به، وفي ذلك يقول فيلسوفهم (أرسطو): " إن الطبيعـة لـم تزود المرأة بأي استعداد عقلي يعتد به.

في المقابل منحت المرأة بعض الحقوق المدنية في " اسبارطه " مثل الإرث ، وأهلية التعامل مع المجتمع المدني التي تعيش فيه .... ولكن مكاسب حواء في اسبرطه لم تكن وليدة نصوص أو تشريع مكتوب حيث أنها كانت بسبب الظروف الحربية التي جعلت رجال المدينة دائما في حروب الأمر الذي أفسح الطريق أمام المرأة للخروج للمجتمع المدني والتحرر من عزلتها ... واتهم أرسطو رجال اسبرطه بأنهم كانوا وراء المكاسب التي حصلت عليها حواء لأنهم تساهلوا ومنحوها بعض الحقوق التي كانت تحلم بأن تفوز بها ...

❑ القانون الروماني:

هو عصر المكاسب لحواء التي حصلت على بعض حقوقها في القـانون الروماني رغم خضوعها لسلطة الأب إذا كانـت غيـر متزوجـة .... وكانت المرأة الرقيق خاضعة لسلطة سيدها . أما الـزواج فـي العهـد الروماني فهو ينقسم إلى قسمين : ـ زواج مع الـسيادة وهـو يعنـى انفصال الزوجة عن أهلها وانتقالها من سلطة الأب إلى سلطة الزوج .

ـ زواج بدون سيادة وهو يعنى أن الزوجة تشارك الزوج فـي الحيـاة الزوجية ولكن لها الحق في أن تبقى مع أسرتها .. و يجب عليها الطاعة لزوجها واحترام رغباته .

-أما الأهلية المالية فلم يكن للبنت حق التملك وإذا اكتسبت مالاً أضـيف إلى أموال الأسرة، ولا يؤثر على ذلـك بلوغهـا ولا زواجهـا، وفـي العصور المتأخرة في عصر قسطنطين تقرر أن الأموال التي تحوزهـا

البنت عن طريق ميراث أمها تتميز عن أموال أبيها، ولكن له الحق في استعمالها واستغلالها، وعند تحرير البنت من سلطة رب الأسرة يحتفظ الأب بثلث أموالها كملك له ويعطيها الثلثين.

- وفي عهد جوستنيان قرر أنه كل ما تكتسبه البنت بسبب عملها أو عن طريق شخص آخر غير رب أسرتها يعتبر ملكاً لها ، أما الأموال التي يعطيها رب الأسرة فتظل ملكاً له ، على أنها وإن أعطيت حق تملك تلك الأموال فإنها لم تكن تستطيع التصرف فيها دون موافقة رب الأسرة . وإذا مات رب الأسرة يتحرر الابن إذا كان بالغاً ، أما الفتاة فتنتقل الولاية عليها إلى الوصي ما دامت على قيد الحياة، ثم عدل ذلك أخيراً بحيلة للتخلص من ولاية الوصي الشرعي بأن تبيع المرأة نفسها لولي تختاره ، فيكون متفقاً فيما بينهما أن هذا البيع لتحريرها من قيود الولاية ، فلا يعارضها الولي الذي اشتراها في أي تصرف تقوم به[١٩].

❑ المرأة في المجتمع العربي

● سكن العرب في شبه الجزيرة العربية ، وهي منطقة حارّة جدبة الأرض ، وهم قبائل بدوية بعيدة عن الحضارة والمدنية ، يعيشون على شَنّ الغارات ، ويجاورهم من الشرق بلاد فارس ومن الشمال الروم ومن الغرب بلاد الحبشة والسودان .

● ولذلك فقد كانت العمدة من رسومهم رسوم التوحش ، وربما وجد خلالها شيء من عادات الروم وبلاد فارس ، ومن عادات الهند ومصر القديمة أحياناً .

---

١٩ http://www.almotamar.net/news/aboutus.php

• وكانت العرب لا ترى للمرأة استقلالاً في الحياة ولا حرمة إلا حرمة البيت ، وكانت النساء لا تورث ، وكانت تجوّز تعدُّد الزوجات من غير تحديد بعدد معين كاليهود ، وكذا في الطلاق .

• وكانت العرب تئد البنات ، وإذا ولدت للرجل منهم بنت يعدُّها عاراً لنفسه ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشّر به ، لكن يسرُّه الابن مهما كثر ولو بالإدعاء والإلحاق ، حتى أنهم كانوا يتبنّون الولد لزنا محصنة ارتكبوه ، وربما نازع رجال من صناديدهم وأولي الطول منهم في ولد ادَّعاه كل لنفسه .

• وربما لاح في بعض البيوت استقلال نسائهم وخاصة للبنات في أمر الزواج فكان يراعى فيه رضى المرأة وانتخابها ، وهذا يشبه ما يجري عند أشراف بلاد فارس القائم على تمايز الطبقات .

• وكيف كان فمعاملتهم مع النساء كانت معاملة مركبة من معاملة أهل الحضارة من الرومانيين وأهل فارس ، كتحريم الاستقلال في الحقوق ، والشركة في الأمور الاجتماعية العامة ، كالحكم والحرب ، وأمر الزواج إلا استثناءً ، ومن معاملة أهل التوحش والبربرية ، فلم يكن حرمانهن مستنداً إلى تقديس رؤساء البيوت وعبادتهم ، بل من باب غلبة القوي ، واستخدامه للضعيف [٢٠].

• لم تقم أسس حياة الاجتماعية عند العرب في الجاهلية على حكومة منظمة أو قانون موضوع بل كانت الأعراف والتقاليد الموروثة هي التي

---

[٢٠] http://www.al-shia.com/html/ara/seyedat/index.php?mod=dinieh&id=١٠
انظر أيضا د. سوزان السعيد ص ص٥٣-٥٧

تراعي بدقة وكان قانون الثأر والجواز هما الأساس الذي تقوم عليه تقاليد القبائل فقد تطورت فكرة القرابة والنسب إلي أن أصبحت حقاً شرعياً على أدني مستوي سلالي ، وهو مستوي العشيرة ، ثم تبلور في رابطة الدم في قانون الأخذ بالثأر .

- كان العرب يفضلون الذكور ويكرهون الإناث ، وانتشرت عادة وأد البنات بينهم ، وكانت هذه العادة متعلقة بغيرة العربي على نسبه وخوفه من أسر بناته ، أو لسوء الأحوال الاقتصادية .

وكانت عادة تعدد الزوجات شائعة بين العرب ، وفي هذه الحالة يقسم الأبناء حسب الانتماء للأم .

- وكان الزنا جريمة تعاقب عليها المرأة أشد أنواع العقوبات ، وفي حالة شك الرجل في امرأته كان عليه أن يحتكم معها إلي الكاهن . فهند بنت عقبه اتهمها زوجها "الفاكهة" بالخيانة ذهبت مع أبيها ، وقوم من عشيرتها إلي حد كهان اليمن وهناك أثبت الكاهن براءتها وأصرت على الطلاق من زوجها ، فالعرف العربي كان يعطي المرأة الحق في طلاق زوجها في مثل هذه الاتهامات .
- والزنا لم يكن محرماً بالنسبة للرجال ، وكانت بيوت البغايا منتشرة في الأسواق والمدن ، ولكن تماري الرجل في الفسق والفجور يعرضه للطرد من قبيلته كما حدث لأمري القيس .
- في حالة فشل العلاقة الزوجية ، كان يتم الانفصال بين الرجل والمرأة، والطلاق كان يتم أما عن طريق طرد الرجل لزوجته ، أو عن طريق الاتفاق الودي بين الزوج وأبو الزوجة وقد أدت هذه السهولة في الطلاق إلي ارتباط المرأة بأقاربها من الدم أكثر من ارتباطها بزوجها ، فلم يكن إمام المطلقة التي يتخلي أهلها عن حمايتها ، إلا أن تلجأ إلي طلب الجوار من قبيلة أخرى.

❑ وكانت عادة ميراث النساء شائعة بين العرب وصف الطبري هذا الزواج فقال : عندما يموت أبو الرجل أو أخوه أو أبنه ويترك أرملة ، فان وريث الرجل إذا أقدم في الحال وألقي بثوبه عليها ، كـــان مـــن حقـــه أن يتزوج منها بنفس المهر السابق.

❑ المجتمع العبري القديم

- كانت حالات الطلاق قليلة ربما لأن الزواج كان يتم من نفس العشيرة أو من الأقارب والطلاق كان يتم بصورة بسيطة بمجرد طرد الرجل لزوجته ولم يكن للمطلقة في هذه الحالة أي حقوق .
- قبل دخول اليهود إلي أرض كنعان لم يكن لهم أصل مـــشترك ولكـــنهم كانوا مجموعة من القبائل تشترك في وتنحدر من المجوعـــة الآراميـــة ، ولكل عنصر تاريخه الخاص وله أدبه الشعبي ، وفي فترة متأخرة أصبحت هذه التقاليد منصهرة ومتجانسة ثم اندمجت هذه القبائل معا[٢١].
- وكان العبريون يبتهجون بميلاد الأبناء والبنات فبعض الأســماء التـــي تطلق على البنات مثل المرح ، السرور تدل على ذلك وظـــل العبريـــون يحتفظون ببعض عاداتهم القديمة مثل التضحية بالنساء من أجـــل حمايـــة ضيف حتى ولو كان هذا الضيف عبداً كما حدث في قرية جبعه والتخلص من العادات القديمة لم يتم إلا في نهاية عصر القضاء .

فرغم تشابه الأعراف والتقاليد العبرية مع الأعراف والتقاليد السائدة فـــي منطقة الشرق الأدنى القديم إلا أن القبائل العبرية كانت لها خـــصوصيتها الثقافية التي جعلتهم يختلفون عن سائر شعوب المنطقة .

---

[٢١] د. سوزان السعيد يوسف ، المرجع السابق، ص ٥٧.

- وقبل نزول شريعة موسى لم يكن للبنات أي حق في الميراث حتى في حالة عدم وجود أبناء ذكور وكان من حق الأب أن ينتقل ميراثه إلي أبناء زوجته المفضلة ، وقد فضل يعقوب أبناء راحيل على بقية أبنائه ولكن التشريع اليهودي منع الأب من هذا الحق .

❑ المرأة و تعديل الشريعة و تفسيرها

- يحتوي سفر الخروج على بعض الشرائع التي تنظم حياة الشعب، ومع تطور الأوضاع الاجتماعية والسياسية اكتسبت المرأة أهمية جديدة لذلك ظهرت الحاجة إلي المزيد من الحماية والحقوق اللازمة للمرأة ولذلك يذكر سفر التثنية .

- **المرأة في التلمود** :قام الرجال بوضع نصوص التلمود وتأثروا بالتعصب ضد المرأة خاصة مع الاعتقاد بأنها كانت السبب في خروج آدم من الجنة هذا بالإضافة إلى الحذر من جاذبية المرأة وبالتالي العمل على تقييد حريتها إلا أن الكثير من زوجات أو بنات الحاخامات كانوا يعتبرون كمشرعات فعندما مرض الحاخام "رشي" كانت ابنته توقع أمور الشريعة الخاصة بالهلخاه والفتاوى باسمه كما حاول حكماء التلمود أن يضعوا بعض القوانين والشروحات الجديدة التي تناسب الأوضاع المستجدة في المجتمع العبري بعد أن تخلوا عن بعض الشرائع التي لم تعد مناسبة ولكن ثار الخلاف بين الفرق اليهودية : هؤلاء الذين يقدسون التوراة ويصرون على تطبيق شرائعها باعتبارها التعبير عن وصايا الله وأوامره وبين علماء التلمود الذين ساهموا على المستوي الثقافي في جعل القانون المبلور والمنجز في الواقع من قبل الحكماء ومن خلال الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية الخاصة بالبيئات التي عاش بينها اليهود"[٢٢]

---

[٢٢] د. سوزان السعيد يوسف، المرجع السابق،ص ١٧٢.

- **تأثر وضع المرأة نتيجة لتغير الأحوال السياسية :**

كان وضع المرأة يتأثر بالأحوال السياسية ففي وقت عدم الاستقرار السياسي كانت الأحوال الاجتماعية تتدهور، رغم أن نص الشريعة لم يتغير في العصور الوسطي عنه في عصر الازدهار (عصر سليمان) إلا أن تدهور الأوضاع الاجتماعية في الحياة اليهودية كانت تعكس حالة النساء فكن في حالة جهل وكانت النظرة إليهن أنهن لا يصلحن للقيام بأي عمل من الأعمال، ومن هنا يؤكل إليهن واجبات تحط من منزلتهن، ليس لأنها أعمال قليلة القيمة والفائدة وإنما لأنها أعمال تافهة يمكن الاستغناء عنها أو يقوم بها العبيد لأنها تحط من مكانة المرأة. وفرضت على النساء عقوبة رادعة إذا رفضن القيام بها ، فإذا رفضت المرأة مثلا: أن تغسل يدي زوجها ورجليه. أو أن تقوم بأعمال الخدمة المطلوبة أثناء تناول الطعام. فإنها تعرض نفسها للعقوبة طبقا للقانون فتعتبر "متمردة" وتطلق بدون حقوق.

- وهذه القوانين والتشريعات التي وضعها بعض رجال الدين اليهودي هي التي أدت في النهاية إلي أن ينظر الرجل نظرة فخر واعتزاز حتى أنه يعتبر ذلك نوعا من التعالي المشروع على المرأة، وأعلنت هذه النظرة وصارت مثلا حيث يذكر الرجل ذلك في صلواته وابتهالاته فيقول "تبارك الله الذي خلقني رجلا، ولم يخلقني امرأة " أما المرأة فقد ردت على تلك النظرة المتعالية ردا مليئا بالقناعة فقالت : الحمد لله الذي خلقني كما أراد" .

❑ إن الأوضاع السياسية الاقتصادية والخلفيات الحضارية والمعتقدات الدينية كانت تؤثر بشكل واضح ومباشر على وضع النساء في المجتمعات القديمة فوضع المرأة لم يكن يتوقف على مدي عدالة التشريع فقط بل على درجة حضارة الشعب ومدي استيعابه للحضارات والثقافات المحيطة به فرغم أن موسي قد وضع تشريعا إلا أن العبريين ظلوا لفترة طويلة بعده يحتفظون بعاداتهم البدائية في بعض الأحيان حتى بعد ثبات التشريع الجديد

كان العرف القديم يتغلب على التشريع الجديد . فرغم تحريم موسي الزواج من امرأة الأب أو الزواج من الأخت غير الشقيقة إلا أن هذه العــادات قــد استمرت بين اليهود لفترة طويلة بعد شريعة موسى [٢٣].

❑ خلاصة القول أن جميع الحضارات الماضــية والمعاصــرة أعطــى المجتمع للمرأة نوعا من الحقوق وأحيانا لم تستمر لوقــت طويــل كمــا تفاوتت هذه الحقوق من عصر إلى عصر آخر.

---

[٢٣] د. سوزان ، المرجع السابق، ص ١٧٢.

الفصل الثاني
دور التعليم والعمل
في حياة المصريين

منذ أن ظهر التعليم النظامي (أي التعليم بالمدارس النظامية) طرأت تغيرات جوهرية على نظام الحياة ككل، وكان مجال التعليم النظامي من أهم المجالات التي لعب فيها توالى ظهور أيديولوجيات وسياسات أدوارا خطيرة. تبع ظهور نظام التعليم النظامي نوع من التربية (النظامية) التي تختلف عن نظام التربية البيتية (داخل الأسرة) والمهنية والحرفية (داخل العمل)

١.أثر التعليم على المجتمعات

أدى انتظام الصغار بالمدارس إلى التفرغ للتعليم بعد أن كانت المهن والحرف والأعمال اليدوية وغيرها مجالات يقضي فيها الصبية معظم الوقت مع ذويهم أو معلميهم في مجتمعات مفتوحة وطبيعية أو شبه طبيعية تتلقن فيها الأجيال الجديدة فنون الحياة على الطبيعة ، و من هنا كان للتعليم النظامي أثر على حياة المجتمعات، فمثلا فلم تُعرف مشاكل سن المراهقة بالنمط الذي ظهر بعد ظهور التعليم النظامي حيث أوقات الإجازات الصيفية وغياب العمل اليدوي في أغلب الأحوال وغياب العلاقات المفتوحة التي تضم مختلف الأجيال معًا في البيت و الشارع قبل أن يُغلق على النشيء باب المدرسة ولذا فلنا جولة مع أثر التعليم ودوره في المجتمع.

- **في العصور الوسطى:** سبق النهضة الصناعية ظهور العصر المدرسي أي التعليم النظامي، وظهور التعليم الجامعي الذي كان تحت إشراف المؤسسة الدينية قبل أن تفقد هذه المعاهد التعليمة طابعها الديني بتأثير ما عرفته العصور الوسطى من تقدم فكري وتغير اجتماعي أدى إلى التحول إلى الطابع الإنساني مقابل ما كان موجودا قبل من تبعية دينية، هذا التغيير الذي رحبت به الطبقة الجديدة فنشاطها قائم على الصناعة و بالتالي يناسبها تيار الفكر الإنساني و يوافق مصالحها أكثر من الأفكار التي حرص رجال الدين على إشاعتها خلال العصور الوسطى ومن هنا جاءت تبرعات تلك الطبقة للاتجاهات الجديدة في الجامعة ويقول د. يونان لبيب رزق: "ولذلك فقد انتصر أصحاب التيار الإنساني وانتهى الصراع لصالحهم وفقدت الجامعات الطابع الديني.. [٢٤]

. [٢٤]د. يونان لبيب رزق، مولد جامعة، ديوان الحياة المعاصرة، مولد جامعة، الأهرام، الخميس ١٥ نوفمبر ٢٠٠٧

وفي مصر: تميزت ولاية محمد علي بأنها بدأت بوضع الأساس للدولة القومية الحديثة التي أفرزت الأفكار الحديثة والشكل المؤسسي لنظم الدولة، وأيضا استجلاب النظام الطبقي المعروف في الغرب، وظهور الجيش والمصانع، وإدخال أنماط علمانية في التعليم .

➢ وقبل ظهور محمد علي على مسرح الأحداث بدأت هناك حركة تنوير في شكل نشر التعليم والمعارف العلمية والتقنية فتشكّل الأدب العربي الحديث والحركة التنويرية، ، وحملت أنماطا تعليمية وفكرية ولغات جديدة ووافدة على البلاد، وكان كلا من تراث العصور الوسطى وحضارة الغرب مصدر العرب لحركة التنوير مما انتهى إلى عدم انسجام في العلاقة بين التراثين العربي والأوربي ، كما ارتبط ظهور الحركة التنويرية بتركيز الجهود على التخلص من الاحتلال والحكم المتخلف السائد في ذلك الوقت و الذي لا يتميز بالوطنية ولا الديمقراطية والرافض لحكم القانون والمساواة والمعتمد على دولة الاحتلال وطبقات الملاك والتجار ، كما لم يكن هناك اهتمام ببرامج التعليم والبحث العلمي (حيث ارتبطت السياسة التعليمية مع سد الاحتياج من الوظائف ومع الظروف المالية المتذبذبة و حاجة البرجوازية الجديدة إلى موظفين متعلمين ووجود نوع من التعليم العلماني) [٢٥].

– فقد اهتم محمد علي بكل المراحل التعليم من الأوّلي إلى الثانوي وأسس المدارس على النظام الحديث وكان الطلبة يساقون إليها كما يساقون إلى الجيش قسرًا على الرغم من ترغيب الباشا لهم بإيوائه التلاميذ وإطعامهم وما كان يقدمه لهم من كساوى ورواتب شهرية غير أن

---

[٢٥] أ.د. عطية القوصي وآخرون، التاريخ للثانوية العامة، (القاهرة: دار التوفيقية للطباعة، ٢٠٠٢) ص ١٩٤

انظر أيضا ز.أ. ليفي، التنوير والقومية، تطور الفكر الاجتماعي المصري الحديث، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٧)ص ٧.

أساس اهتمامه بالتعليم لم يكن الرغبة الخالصة في تعميمه بين الأهالي بل كانت المدارس في نظره جزءا من نظام الجندية [٢٦].

- أما عن النهضة الثقافية في عهده فلا شك واضحة فقد نهضت اللغة العربية بعد أن كادت تقتلها العامية وكانت أنجح مدارس الباشا المدارس الخاصة بأسلحة الجيش ومدرسة الهندسة بالقلعة ومدرسة الطب ومستشفاها. . . "لكن التعليم الجامعي صادف عقبة الوظيفة الميري إذ كان خريجو الطب والمهندس خانة والألسن يحصلون بسهولة على وظيفة حكومية... ... التي ظلت الأمل المرتجى لخريجي الجامعات المصرية مما أضعف الدور الذي كان ينبغي أن تقوم به الجامعة في السبق العلمي كما يحدث في جامعات العالم المتقدم... حيث القول الحر في الكليات النظرية والتجارب الحرة في الكليات العملية"[٢٧]

- و هنا يثور سؤال حول مدى خلق مناخ تعليمي يعمل على بناء شخصية الإنسان المصري كهدف محدد يسعى من خلاله لإعداد المصري للوعي بوجوده وكيانه وحقوقه فيبحث عنها، وواجباته فيهتم بتأديتها وما يترتب على هذا من تنمية مستدامة وتماسك اجتماعي ووعي طبقي، فالتعليم ارتبط في عهد محمد على- إلى حد ما - بأهداف سياسة الاحتكار الاقتصادي وبناء القوة الذاتية والتوسع الخارجي والحروب التي دخلها محمد علي.

- أما النقلة التي شهدها التعليم على يد ثورة يوليو فيقول عنها د. جلال أمين:" إنه بعد مرور رُبع قرن على قيام ثورة يوليو١٩٥٢ كان قد تكـوّن لمصر جمهور واسع من المتعلمين وأنصاف المتعلمين الذين تخرجوا من جامعات ومدارس تتساهل أكثر من أي وقت في منح

---

[٢٦] محمد رفعت، تاريخ مصر في الأزمنة الحديثة (القاهرة: دار المعارف، ١٩٣٧) ص ٩١.
[٢٧] د. يونان لبيب رزق، المقالة السابقة.

الشهادات، ومعاهد متوسطة تخرّج من الملمّين بقواعد القراءة والكتابة والحساب أكثر مما تخرّج متدربين على حرفة أو مهنة بعينها. ويضيف قائلا:أدى هذا التوسع في التعليم إلى خلق طلب جديد وواسع على أنواع من الثقافة غير المتعمقة وعلى وسائل ترفيه تستجيب لنوازع وميول بسيطة وبدائية "[٢٨]

- فماذا عن دور التعليم في خلق تيار تنويري يشارك فيه الرجل والمرأة على السواء ويساهم فيه كلاهما على السواء بل ويحصد ثمارها المجتمع كله

إن التيار يتحقق عندما يكون حجمه الحقيقي أكثر من مجرد بعض الكتابات أو المقالات هنا أو هناك، أو مجرد مجموعة من المثقفين تؤمن بفكرة ما وتتحاور أو تتناحر حولها، أو كما يقول غالي شكري في كتابه "ثقافتنا بين نعم ولا " عندما يكون أكثر من نقطة في محيط عظيم يبدأ من المدرسة الابتدائية وينتهي بالجريدة اليومية والراديو والتليفزيون والسينما[٢٩] " أي أن (التيار) عبارة عن منظومة متكاملة تمس التعليم والثقافة والخطاب الديني والحياة الثقافية بالمعنى الواسع.

٢.التعليم في ظل مناخ الحرية الفكرية

لكن وإن كان لا يبدو أننا وصلنا إلى ما نتطلع إليه من رسالة التعليم في مصر ليقوم بالدور المطلوب منه كمصدر رئيسي وأساسي للتنوير ويطلق فاعلية البشر ويكشف القدرات والمواهب حيث أن التعليم و نوعيته

---

[٢٨] د.جلال أمين، عصر الجماهير الغفيرة (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢) ص ١٢٩.
[٢٩] غالي شكري، حياتنا الثقافية (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩١) ص ٢٥.

يشكلان نقطة انطلاق للمجتمع. وان كان التساؤل عن مدى ما أعطى التعليم في مصر من الفرص لإطلاق قدرات جديدة ما زال قائما لكن لا يمكن إنكار دور التعليم حتى وان طالبنا بتحسين نظامه، و في هذا المجال يقول جابر عصفور "في الحقبة التاريخية منذ ١٩٠٨ إلى ١٩٤٥ و هي حقبة صعود الحركة الليبرالية المصرية التي تأسست مع صعود الطبقة الوسطى في عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣ والتي كان التعليم من أهم العوامل التي أفرزت الطبقة الوسطى في ذلك الوقت ، وكان افتتاح الجامعة المصرية ١٩٠٨ التي كان وراءها مجموعة من المصريين جمعهم الفكر الليبرالي من بين شرائح اجتماعية متنوعة كما جمعتهم فكرة احترام الحرية الفكرية . شقت الجامعة طريقها رغم معارضة الاتجاهات المتوجسة والمحافظة وعرفت المرأة طريقها إلى الجامعة رغم أيضا معارضة الجماعات المتوجسة والمحافظة" ويضيف جابر عصفور أن مسار حرية الفكر سار موازيا لمسارات الحرية السياسية والفكرية والاقتصادية [٣٠]

وفي هذه الفترة ظهرت الريادة المصرية الثقافية في مناخ تميز بشيء من الاستقرار ما تبعه من دفعة نحو العمل والإنتاج و في ظل مناخ تميزه الحرية و الإبداع ، وهنا يسرد د. يونان لبيب رزق بـرز دور المرأة المصرية ليس كمجرد امرأة تتعلم و تعمل بل امرأة رائدة في عدة مجالات فكانت رائدة في مجال نشوء العمل الأهلي في مصر في شكل مستشفيات ومدارس وجمعيات رعاية الطفل وأيضا معالجة قضايا الزواج القهري بل

---

[٣٠] جابر عصفور، ثقافة الحقبة الليبرالية ، الأهرام ، ٢٥ أغسطس ٢٠٠٨

وقضايا الإحجام عن الزواج في العشرينيات والثلاثينيات حين قارن الشباب المصري بين الفتاة الأجنبية والمصرية وحين انشغل بالجديد الذي حفلت به تلك الفترة من ملاه وأشغال ، كما لاقت المرأة مساندة الرجل في عدة أشكال سواء بالنشر أو التأييد أو الحث على المشاركة والعمل في كافة المجالات ومنها المجال السياسي [٣١]

٣. المرأة والعمل

- لماذا تعمل الفلاحة في الحقل- جنبا إلى جنب مع الرجل؟ هل لتثبت حقها أم أن دواعي العمل المكثف في أوقات الحصاد مثلا يستلزم الاستعانة بكل يد قادرة على العمل مع الأخذ في الاعتبار أن المرأة في هذه الحالات تعمل مع كونها حاملا أو مرضعة فهل هذا يعني أن الحالة الإنتاجية لمجتمع ما هي واحدة من العوامل التي تحول دفة مناقشة قضية عمالة المرأة لجهة دون الأخرى؟!

- وإذا عملت الفلاحة في الحقل والعاملة في المصنع فهل مجرد دخولها مجال العمل يعني أنها حصلت على حقوقها وحققت وجودها وان المجتمع اعترف بشخصيتها الاعتبارية مثلها مثل الرجل ، أم أن علاقة العمل نفسها عندما تكون منقوصة تصبح مصدرا (لقضايا) جديدة تواجهها المرأة

[٣١] د. يونان لبيب. رزق، المرأة المصرية بين التطور والتحرر،(القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢)

- و إذا تولت المرأة أرفع المناصب فهل سنغلق ملف المرأة لأن المشكلة انتهت أم أن هذه النقلة نفسها تحتاج إلى معالجة جديدة؟

- وقد تتحمل المرأة في مجتمعنا الآن أصعب المسئوليات وأشقها سواء في مجال العمل أو العلم أو تحمل المسئولية سواء مسئولية الأسرة بكل ما استجد على الأسرة من ظروف ومتغيرات تجعل من المرأة بحسب المصطلح المستحدث " المرأة المعيلة" سواء ماليا أو معنويا بتحملها رعاية مريض أو مسن ..الخ أو مسئوليات خارج البيت ، إلا أن كل هذه الممارسات لا تؤدي بالضرورة إلى نضج شخصية المرأة لأنها أمور لا تحدث هذه النتيجة بطريقة تلقائية فهي في كل ذلك قد تظل مجرد (مؤدية) لأدوار فرضتها الظروف والمتغيرات وتظل بالتالي تحمل شخصية المرأة التقليدية التي لم يعتريها أي تغيير تجاه تنمية شخصيتها ونضجها وإحساسها بمكانتها كإنسان له وجوده الحر في المجتمع وله رأيه وتطلعاته ومسئولياته التي يختارها كأدوار يرى أنه يقوم بها لإضافة الجديد على المجتمع فكيف نفرض على إنسان أن يجهل ما يدور حوله في المجتمع و أن نمنعه من المشاركة بكفاءة وبكفاية ونرى أنه يكفي النساء أن (يحملن سلاح التعليم) من أجل (جلب المال للأسرة) وأقصى تطلع هو (المنافسة على تولى الوظائف العليا) فهل هذا هو كل الهدف من العلم؟ هل هو (سلاح) يوفر العمل للمرأة لتواجه غوائل الزمن؟

- لا شك أن خروج المرأة لكي تتعلم يعتبر في نفس الوقت كسرا للأسر الاجتماعي والعزلة التي كانت تحيطها حتى تكاد تكون لا تعلم شيئا عن ما يحدث خارج باب بيتها، فمع الإقرار بأن المرأة نالت حظا

من العلم وعملت وشاركت في العمل الـسياسي فيبقـى الـسؤال عـن وضعها الأسري والمجتمعي حيث النظام الأبوي هو السائد سواء علـى المستوى الأسري أو المجتمعي

- والخلاصة

لماذا لا نقول إن كلا من ـ التعليم والعمل ليس مجرد (حق أو واجب) ولكن (قيم) تحتاج أن نرسخ أهميتها نظرا للدور الحيوي الذي تلعبه في مجتمع يتطلع لرؤية أفضل للمستقبل؟

- لذا لا أعتقد أن القضية تنحصر في الحق في التعليم والحق في العمل، وليس (تحصيل) المرأة للعلم أو (إحراز) المراكز الوظيفية معناه حتمـا أن قضيتها وجدت الحل أو حتى الطريق للحل. وماذا عن الوضع الحـالي لكثير من النساء اللاتي يعملن أصعب بل وأخطر المهن والأعمال وأحيانا يواصلن دراسات وتدريبات بجانب تلك الأعمال وماذا عن النساء اللاتـي يحققن دخولا عالية من أعمالهن؟ بل وماذا عن أطفال صـغار يعملـون ويعولون أسر بكاملها؟ وهل ننظر لعمالة الأطفال هنا باعتبارهـا تحقيقـا لوجود الطفل؟!

– لا شك أن الظروف الحاضرة تصهر الجميع في بوتقة الكـد والجـري وراء لقمة العيش وكثير من الناس يعملون أشق الأعمـال وتطـول بهـم ساعات العمل اليومي. لكن القضية ليست التعليم ولا العمل كأهداف نهائية وإنما تنمية الشخصية والتطلع والسعي نحو النضج وتكوين وجهـة نظـر مسئولة عن معنى وهدف الحياة للرجل و المرأة والطفـل و الـصبي الكل من حقه. أن تتاح له فرص المعرفة، وتنمية الوعي، والتدريب علـى تحمل المسئوليات وأداء الأدوار، ليس من أجل لقمة العيش فقط ولكن من

أجل وجود معترف به في المجتمع المحيط به وهو الأمــر الــذي يكــون بالفعل محل سعي الإنسان وهدفه من الحياة.

- أما العمل فهو عالم تفعيل العلم وتجسيد الابتكار والإبداع . العمــل يحرك الطاقات وفي تيار هذه الحركة تتحرك أفكــار المــرء ووجدانــه وتتكون من خلال العمل عادات وتطلعات ومبادئ تربط الناس بالبيئة من حولها. العمل قيمة تخلق شعورا باللذة خاصة إذا ارتفع إلى منزلة الرسالة فهنا يقترن بالمواهب والمعرفة المنظمة ، فكيف يمكن أن نحكــم علــى إنسان ما انه لا يصلح لأيهما ؟

- إن مجالي العلم والعمل هما ممارسة تظهر فــي الجانــب الإنــساني وجوده المعنوي وتنميه مما يشمل من خبــرة التفكيــر واتخــاذ القــرار والاعتماد على الذات ، وكلما اقتربت خبرة التعليم من المعنــى الــصحيح للعملية التعليمية التي هي تربوية في نفس الوقت استطاع الإنسان أن ينمي ملكاته الإبداعية والابتكارية، فالتعليم والعمل يوفران ممارسة ومجــالات لاكتساب الخبرة في جانبيها العملي والنظري وأيضا التدريب على المثابرة والالتزام وهما يمثلان أول مجال يتعلم فيه الفرد التعامل مع الآخــر بمــا يشمله من خبرة ، وللأسف تحولت العملية التعليمية في معظمها إلى مجرد تحصيل علم للوصول إلى مركز وظيفي ومن هنا نعود مرة أخرى لنقول إن القضية ذات شجون وأنها محكومة بمنظومة تنتظم في سلسلة مترابطة تتصل بعضها بالبعض وتؤثر وتتفاعل معا.

- إن تعلم المرأة وبالتالي انخراطها في سلك العمل ليس هدفا فــي حــد ذاته وليس الغاية النهائية التي ينبغي أن تتطلع إليها المجتمعات فتواجــدها في هذين المجالين لا يعني بالمرة أن المرأة تم لها تحقيق وجــود صــحي

في المجتمع كما أنه في نفس الوقت ليس مجرد تحدٍ أخرق توجهه جـنس النساء لجنس الرجال أو حتى المجتمع ككل فمادمنا في مجـال التحـدي وإثبات الذات بالقوة فإننا أمام مشاكل جديدة ولسنا أمام مشكلة في طريقها للحل، لأن الصدام والمزاحمة ليس الهدف من تواجد الجنسين في مجـال تكافؤ الفرص أو المساواة أو أيا كانت التسمية التي نطلقها علـى الـشكل الذي نبغي من وراءه حل هذا الصراع

٤. العمل والنجاح في حياة المرأة

- إن الدعوة التي تنادي بوجود الجنسين معا إذا تمت في شكلها الصحيح سيكون الهدف منها إيجاد (الإنسان) رجلا وامرأة معا ليكونا كيانا سويا متكاملا معا حتى تتوافر خبرة متنوعة وطبيعية تدفع الكيان كله بماله من خبرات متباينة أو متساوية أو متفاوتة إلى الجمع بين الاثنين لتكتمل الخبرة وتأخذ الوضع الطبيعي لخبرة إنسانية ذات أبعاد كاملة لنتيجة لوجود إنساني كامل، ولا شك أن المجتمع بأكمله هو المستفيد الأول عندما يوجد كلا من الرجل والمرأة معا والتي تمثل نصف المجتمع بالضبط ، لكن ما نتصوره شكلا نهائيا لحل مشكلة هو في الواقع خطوة على الطريق لا تعني شيئا في حد ذاتها، فما يترتب عليها هو الذي يحدد أين نحن من المشكلة، فمن ناحية يتهدد هذه الخبرة مجرد الوجود الشكلي تماما كما يحدث في القانون الخاص بتعيين نسبة من المعاقين في الوظائف العامة رغم أنه حق مقرر بنص قانوني إلا أن القانون على الورق لا يشعر المجتمع بوجوده الفعلي ونسبة الاستفادة الحقيقية محل سؤال، فالواقع العملي هو محك اختبار الوجود الحقيقي والفعال لكلا الجنسين و مدى صحته يختبر ، فعندما لا يثبت الواقع أن المؤسسات المعنية ترتب أوضاعها بترحاب وبالسرعة اللازمين لتحقيق هذا الوجود ولا تعمل على تلاشي غياب المرأة من قائمة العاملين ومن مواقع المشاركة في صنع القرار أو توفير الرعاية اللازمة لصغارها، فهنا تظهر

مشكلة، ولعل ما تقوله فريدة النقاش في كتابها "حدائق النساء" : إن استغلال قوة العمل وبخاصة من بين النساء والأطفال بصورة همجية في بلداننا لصالح الشركات متعددة الجنسية ، هو لكي تحقق الطبقات الغنية في كل شمال العالم وجنوبه تراكماً بسرعة الضوء ترعاه المالية الدولية " و هذا يثبت أن فكرة الانخراط ضمن القوة العاملة لا يقوم دليلا في حد ذاته على تحقيق أي مكانة أو الارتفاع بشأن أي قطاع من قطاعات المجتمع ومن هنا يأتي اهتمام زافيلا Zavella –وهي ممن يوجهن الاهتمام للدراسات الأنثروبولوجية– بربط النظام ال بوضع المرأة العاملة أو ما أطلقت عليه الأبوية الرأسمالية فبداية من تساؤلها عن المستفيد بأجر المرأة من العمل وانتهاء بأساليب استخلاص الربح من عملها تتحرك زافيلا في البحث عن المستفيد من عملها وأجرها وتوصلت إلى أن" الرجل" في النهاية هو المستفيد الأول من عمل المرأة سواء خارج أو داخل المنزل . و رأت أنه على الرغم من التغير في تقسيم العمل المنزلي – حيث أصبح الرجل أكثر مشاركة – وتزايد قدرة المرأة على اتخاذ القرار والتحكم في دخل الأسرة ، فإنها تحولات ليست جوهرية بالقدر الذي توحي به ، فقد التحليل البنائي للأسرة وسوق العمل أسفر عن استمرارية تبعية المرأة للرجل " . وأضيف على رأي زافيلا أنني لن أقصر الظلم الواقع على المرأة بكون الرجل وحده مصدره ولكن (النظام المجتمعي) كله شريك في ذلك

- إنه وضع يشبه وضع الأقليات في أي مجتمع حيث يظهر الاحتياج إلى تلك الأقلية سواء نتيجة للخبرة التي لا تتوافر إلا عند الأقلية أو لضعف القوة العاملة في العدد وليس بسبب الاعتراف بمكانة أو تمتع بشرف المساواة والمشاركة حتى لو تولوا أعلى المناصب، وتذكر فريدة النقاش مثالا على استثناء تاريخي حين تولت شجرة الدر حكم مصر في العصر المملوكي. وإن كان العصر المملوكي شأنه شأن المجتمعات

الطبقية الأبوية قائماً و مرتكزا على التمييز ضد المـرأة ولـذا فـصعود شجرة الدر إلى حكم البلاد لا يمثل حالة الصعود للنساء بصفة عامةً فـي عصرها.

- لكن وعلى الطرف الآخر من تصرف الأقلية عندما يكـون للأقليـة كلمة مسموعة أو مركز متميز مؤثر فماذا هي فاعلة كأقلية وهـل تميـل المرأة إلى نصرة قضية مكانة المرأة باعتبارها في موقع شخصية عامة لها دور في صنع القرار في الجهة التي تعمل بها أو تمثلها ولهـا موقـع مساو للرجل، أم أن سياق الأقلية يغلب في هذه الحالة حيث تخشى الأقلية من إلصاق تهمة المحاباة لمن في مثل مكانتهن.
- فطبقاً للنظرية الكلاسيكية لسلوك الأقليات تميل السيدات الناجحات فـي عالم الرجال– باعتبارهن الأقلية– إلي اسـتيعاب الثقافـة الـسائدة فـي المجتمع، وذلك إلي الحد الذي يجعلهن يملن إلـي عـزل أنفـسهن عـن السيدات الأخريات ، تجنباً لاستهانتهن بنجاحهن. هذا من ناحية أما الناحية الأخرى فربما تتعرض المرأة ذات المركز المرموق إلـى نقـد النـساء الأخريات وانتقادهن لوضع المرأة الناجحة التي " تعدت " الحدود التقليدية التي يُسمح للمرأة أن تتحرك في دائرتها فقد أشارت بعض الدراسات إلـي أن المرأة بمجرد حصولها على مقعد داخل داخل البرلمانات فإنها تهـدر حقوق المرأة. وتفسر تلك الدراسات هذا الموقف بأن المـرأة تحـاول أن تثبت أنها جديرة بالحقوق التي حصلت عليها كما تحرص في نفس الوقت على الاحتفاظ بمقعدها داخل المجلس عن طريق التزامها بتوجهات النظام حتى لا تخسر ما توصلت إليه من حقوق.[٣٢]
- ربما اتضح مما سبق أن دخول المرأة مجال العمل و كـذلك حـصولها على دخل منه لا يرتبط دائما بكونه مصدر ثقتها بنفـسها أو اسـتقلاليتها

---

[٣٢] د. أحمد زايد، المرجع السابق ص ٢٦٨.

فهناك عوامل لا بد أن تساند هذه الخطوة لكي تتمتع المرأة بالثقة في نفسها، فنظرة المجتمع للمرأة العاملة مهمة بل وحيوية في هذا المجال، فقد ينظر المجتمع لعمل المرأة باعتباره مزاحمة للرجال خاصة عندما تضيق فرص العمل وتضطر الدولة إلى خلق وظائف وهمية و بالتالي خلق بطالة مقنعة أو قد يرى أنها مصدر إنتاج يسد به احتياج ملح للأيدي العاملة كما في عمل الفلاحة في الريف التي لا يعود عليها عملها بأي نوع من الحقوق أو الامتيازات، أو قد تكون مصدر الدخل لنسبة لا بأس بها لرجال لا يعملون وينتظرون دخل المرأة كما يحدث في نسبة عالية من أسر المرأة المعيلة .

- لا يصبح العمل دلالة نجاح للمرأة إلا عندما يمنحها خبرة متجددة واستقلالية حقيقية نابعة من مشاركتها في اتخاذ القرار سواء في العمل أو في مجال الأسرة باعتبار أن تلك الثقة مردود لنجاحها في عملها و إثبات كفاءتها و هناك عامل آخر مهم وهو دور الدولة في تمكين المرأة و ذلك بالاعتراف بدورها الحيوي في المجتمع و توفير فرص تساهم بها بالفعل بدور حيوي خلاق في سوق العمل، فقد يتم تعيين المرأة في أعلى المناصب ولكن لمجرد أن تكون رمزا لا أكثر كأن تكون قاضية أو عضوة في لجان شرفية (حتى في المجال الكنسي)، وكذلك توفير الرعاية التي تحتاجها المرأة العاملة كزوجة و كأم و ربة بيت بدون أن يشعر الرجل أن هذا امتياز تحصل عليه المرأة يقابله غبن يقع عليه وأن الحل يكون بتركها العمل للقيام بأدوارها المذكورة وليس بتوفير رعاية تتيح لها الإسهام في مجال العمل ، يتصاعد هذا التوجه خاصة بعد أن طرأ على المجتمع تغيرات أضعفت من التماسك بين أفراده وغذّت الإحساس

بالتزاحم و التنافر، فمكانة المرأة العاملة في مجتمعها وتوفير فرص التمكين للنساء، تعد قياساً لمدى رفعة ونهضة الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومدى تقدم المجتمع و تطور الدول [٣٣]

- ومن هنا يمكن القول أن قضية المرأة قضية مزمنة بل وقد تكون معقدة لأن طرح القضية في شكلها البسيط أي بترتيب خطوات محددة تتم خطوة وراء أخرى بشكل افتراضي قد لا يساير الواقع بما يؤثر فيه من عادات وتقاليد وأبعاد دينية ونظرة المرأة لنفسها ونظرة المجتمع لها ...الخ ولذلك ليس صحيحا أن مجرد حصول المرأة على الحق في التعليم يعتبر نجاحا حققه جنس النساء، فالحكم على التجربة بالنجاح يرتبط بأبعاد كثيرة تؤخذ في الحسبان وأهمهما ما يتم بالفعل على أرض الواقع كما ونوعا وبالتالي يمكننا القول إن نجاحا ما تحقق أو تأجل ظهوره أو لم يظهر أصلا، تماما كما أن مجرد جمع المال وتكوين ثروة في حد ذاته لا يعني تحقيق النجاح وربما أن أخطر ما يواجه المجتمع هو عملية التقسيم هذه وعدم تكوين نظرة كلية للأمور، فمثلا يمكن أن تتعلم المرأة وتحقق مكانة مرموقة على السلم الوظيفي وهنا تبدأ مشكلات من نوع جديد ،ويكفي أن الموروث الشعبي الذي يحمّلها تبعات نجاحها المهني الذي يعدُّه البعض نجاحاً شخصياً لها على حساب سعادة أسرتها، وأن ارتفاع مكانتها في العمل لابد وأن يؤثر بالسلب على حياتها الأسرية وهو مردود نجاح المرأة وكيف يستقبله المجتمع الذي قد تصل درجة رفضه لهذا الإنجاز إلى استنكار حدوثه أصلا، والأسباب التي يتعلل بها كثيرة منها إهمال

---

[٣٣] انظر د. احمد زايد، المرجع السابق، ص ٣٢٧.

شئون البيت، ومنافسة الرجل في فرص العمل، ورفض المرأة نفسها لأداء تعتبره قصرا على الرجال، ففي رأيها هي لها (أداءها الحريمـــي) الــذي يناسب طبيعتها من جهة و الذي يشبع تطلعها المحدود مــن جهــة ثانيـــة وغرور رجلها من جهة ثالثة.

-ولذا فإن أسلوب تناولنا للتفكير في قضايانا ومشاكلنا وبالتالي وضـــع تصورات وحلول وخطط ، يحتاج ألا نركز على جانب واحد للقــضية وإلا فإننا سنصل إلى طريق يتشعب بنا إلى متاهــات تــستغرق الجهــد والوقت في محاولة العودة للنقطة الصحيحة هذا إذا عرفنا كيف نعود

هناك قضية أخرى ترتبط بقضية التعليم وما أدى إليه من إحداث تغيــرات هائلة في المجتمع المصري وهي قضية التركيبة الاجتماعيــة و مـــا أدت إليه من متغيرات جذرية في كافة مجالات الحيـــاة فـــي مجتمعنـــا وهـــو موضوع الفصل التالي

الفصل الثالث

المتغيرات الطبقية

و أثرها على المجتمع المصري

في بداية القرن التاسع عشر اندثرت قوى كانت بارزة في ظل الحكم العثماني المباشر وظهرت قوى جديدة بعد أن تضاءل نفوذ علماء الأزهر وانتقال النفوذ إلى خريجي المدارس الجدد الذين تعلموا في المدارس النظامية وأعضاء البعثات كما تضاءل نفوذ القيادات الشعبية بإبعاد قادتها لينفرد محمد علي بالحكم، ثم ظهور طبقة الأعيان من كبار ملاأراضي الزراعية ومتوسطي المُلاك نتيجة التوسع في حقوق الملكية التي بدأها نظام محمد علي وظهور طبقة عمال الصناعة واستمرار طوائف الحرف التي انضمت إليها شريحة أخرى

ا. بناء الشكل الاجتماعي في مصر:

أتيحت فرصة التعليم الحديث في مدارس محمد علي وإسماعيل للذين جاءوا من بين صفوف الفلاحين (حين كان التعليم مجاناً حتى بداية عصر إسماعيل) فقد احتاجت إصلاحات محمد على إلى التعليم لتوفير الكوادر اللازمة للإدارة، وسارت سياسة التعليم تبعا للحاجة إلى الموظفين ضيقا واتساعا وعندما توقفت مجانية التعليم لم يعد الطريق مفتوحـاً لفرص الحراك الاجتماعي لأبناء الفلاحين. وهكذا أصبح المتعلمون من موظفي الحكومة كبارهم وصغارهم، يعبـِّرون عن الطبقة الوسطى المصرية، كما تمكـَّن بعضهم من صعود السلم الاجتماعي عن طريق هبات الأراضي التي منحها إسماعيل –على وجه الخصوص– للبارزين منهم، وأيضـاً عن طريق المصاهرة، وغير ذلك من روابط جعلت شريحة المتعلمين (الأفندية) تلتصق بالطبقة الوسطى وتتنكر لأصولها الفلاحية كما يقول د. أحمد حجازي في مقاله عن" الطبقة الوسطى وثقافة التهميش"[٣٤] في تلك الفترة التي شهدت نوعا من الاستقرار الاقتصادي و من ثم الاجتماعي جنبا إلى جنب مع ظهور التعليم في المجتمع المصري بدأت تباشير نهضة المرأة المصرية

بعد ثورة يوليو:

- بعد ثورة يوليو مباشرة، فقدت الطبقة الوسطى القديمة التي كانت مسيطرة مكانتها وسيطرتها، إلى أن اختفت بعد فترة قليلة من قيام

---

[٣٤] د. أحمد حجازي، الطبقة الوسطى وثقافة التهميش، دورية الديمقراطية، العدد١٦، ٢٠٠٤، المرجع السابق، ص ٥٥.

الثورة، وهنا وجد أبناء الطبقة الوسطى الجديدة أنهم على أعتاب قمة السلم الاجتماعي، حيث أتاحت الثورة لتلك الطبقة الحصول على خدمات وفرص واسعة أسهمت في زيادة حجم الطبقة الوسطى نتيجة للحراك الاجتماعي واسع النطاق الذي نتج عن البرامج الاقتصادية والاجتماعية للثورة والذي أدى إلى صعود أبناء العمال والفلاحين إلى صفوف الطبقة، تزايد البيروقراطية مما فتح أبواباً جديدة للترقـــي والصعود الاجتماعي السريع، فهناك مناصب أُستحدثت مثل مديري الشركات أو المؤسسات التي تملكها الدولة، أو كوادر الحزب، أو أعضاء المجالس النيابية والمحلية مما يجعلنا ننتقل من تكوين الطبقة واتساعها إلى معدل الحراك الاجتماعي السريع بل وغير المحسوب الذي أصبح ملمحا هامــاً يميز الطبقة بوجه عام في تلك الفترة. ولعل أهم ما يميزه كما يرى د.جلال أمين [٣٥]أنه لم يحدث نتيجة لإتاحة الفرص المتكافئة لأبناء الطبقة للصعود والترقي طبقــاً لمواهبهم وقدرتهم وإنما نتيجة لتلك السياسات والتي أدت بالتالي إلى تطلع الطبقات الدنيا إلى الالتحاق بصفوف المهنيين والموظفين بالرغم من الإشادة المستمرة بجماهير الفلاحين والعمال ودورها الرئيسي في تقدم المجتمع. كما أدى اتساع الطبقة الوسطي بدوره إلى الضغط على طلب التوسع في التعليم المجاني حتى مراحله العليا فانتشر التعليم الجامعي ليشمل فتح جامعات جديدة في عدة مدن رغم أن الحاجة الملحة كانت لخريجي المدارس الفنية وما زال الوضع على ما هو عليه حتى الآن.

---

[٣٥] د. جلال أمين له كتابات عديدة في هذا المجال ومنها " نحو تفسير جيد لأزمة الاقتصاد والمجتمع في مصر (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٩) ص ص١٨٨، ١٨٩

☐ **في الستينيات والسبعينيات:**

كان الحراك الاجتماعي في أعلى معدلاته في الفترة بين الستينيات والسبعينيات وطبقًا لرصد د. جلال أمين تجمعت ظروف الاتساع الهائل للطبقة الوسطى مع ظروف التغيرات التي مر بها المجتمع المصري في منتصف الستينيات: "وبعد أن كانت الطبقة الوسطى هي المستفيد من الثورة في الخمسينيات والستينيات انقلبت في منتصف السبعينيات وحتى اليوم لتصير هي أكثر الأوساط الاجتماعية تعرضا للضغوط والمصاعب ليس لأنها تريد أن تشبع طموحاتها بل لكي تثبت أقدامها وتتفادى النزول للقاع"[٣٦] كما يرى بداية ظهور ملامح سياسة الانفتاح الاقتصادي والهجرة لبلاد النفط مع بداية السبعينيات، ومع أن دور الدولة يعد حاسمًا في الإسراع في معدل الحراك، إلا أن السبعينيات شهدت تغيرًا آخر، بعد أن تضاءل دور الدولة في الاقتصاد فلم يعد هو العامل الذي يوفـــر فرص الصعود أمام أصحاب المهن. بالإضافة إلى أن الدولة أعادت للأرستقراطية الزراعية والرأسمالية الكبيرة بعض امتيازاتها برفع الحُراسات عنها، فانفتح الباب أمامها لممارسة الاستغلال الزراعي المكثف، كما انفتحت أبواب جديدة للاستثمار.

٢. تأثير تزايد الحراك الاجتماعي في مصر.

يقول د. جلال أمين أن فترات الازدهار في الطبقة الوسطي تعتمد على ممارسة أعمال منتجة واستقرار اقتصادي واجتماعي نسبي، وذلك عندما يأتي دخلها من أعمال منتجة مثل الاشتغال بالزراعة أو المهن كالطب والتدريس... الخ فإن المجتمع يتمتع بالاستقرار إذ يسير الحراك الاجتماعي بخطى ثابتة، أي أن انتقال الشخص من الطبقة الدنيا للطبقة الوسطي يتم عبر فترة طويلة قد تستغرق حياة الشخص بكاملها، وبالتالي

---

[٣٦] رضا محمد هلال، الحداثة المجهضة، دورية العصور الجديدة، العدد التاسع، مايو ٢٠٠٠، ص ١٧٨

فإن أفراد الطبقة الوسطى في هذا الوضع المستقر نسبيـًـا يتصفون بسمات نفسية وتطلعات وقيم تختلف عن التي لأولئك الذين حققوا هذا الصعود بمعدل سريع، فالاستقرار –وأيضا المحافظة عليه لصالح الطبقة الوسطى ذاتها– يحدث أثرًا نفسيا بالالتزام بأخلاقيات وينشي تطلعات تختلف عن تلك التي يتسم بها الذين يحصلون على دخولهم من مصادر مثل أعمال السمسرة والعمولات والمضاربة وخاصة إذا كانت غير أخلاقية أو غير منتجة في أغلبها[٣٧].

- ☐ أدى ضعف هذين العاملين(العمل المنتج والاستقرار النسبي) في الفترة من ١٩٧٠– ٢٠٠٠ إلى ظهور معدل دخل سريع من أعمال غير منتجة، وتبع ذلك معدل نمو الطبقة السريع الذي لم تعرف مصر له مثيلا، وبالتالي ظهور قدرة شرائية عالية بجهد بسيط ومستوى منخفض للمنتجات، فاتساع الفرص للصعود وخاصة السريع الذي يعتمد ويحتاج في نفس الوقت لوسائل غير إنتاجية يغري الطبقات الصاعدة بالتخلـــي عن فضائل وقيم تحول دون رغباتها الجديدة، وتمنعها من تحقيق مطامحها بل ربما مطامعها، كما أن احتمالات الهبوط والتردي للطبقة الأدنى يضعف التمسك ببعض أنماط السلوك التي يؤدي التمسك بها إلى الحيلولة دون تفادي الهبوط فتسود القيم المادية وتنخفض القيم المعنوية.[٣٨].
- ☐ فتغير نمط الاستهلاك وسادت عوامل محاكاة ورغبة الفرد في الظهور بالانتماء إلى الطبقة الأعلى من طبقته الحقيقية
- ☐ وتأثر المستوى الثقافي بعدما اعتمدت الطبقة الوسطى في أغلب نشاطها على مصادر غير منتجة أو غير مشروعة أو غير أخلاقية، ومن هنا يبدأ ظهور بعض الظواهر مثل الرغبة الشرهة في الشراء مع بذل أقل

---

[٣٧] د.جلال أمين، عصر الجماهير الغفيرة، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥) ،ص ص ١١٦- ١١٧

[٣٨] د.جلال أمين، عصر الجماهير الغفيرة، المرجع السابق ص ص ١٤٨-١٥١

جهد للعمل، ويصحب هذا انخفاض ملحوظ في نوعية المنتج سواء الفني أو المهني أو الاقتصادي.

ويرصد د. عبد الباسط عبد المعطي تغييرا في علاقات التملك وعلاقات العمل في تلك الفترة ، فقد تزايدت نسبة العاملين بأجر والذين أصبحوا أقرب إلى العمال من أعضاء الطبقة الوسطى مما أدى إلى تشتيت الانتماء الطبقي هذا علاوة على اشتغال أعداد من الطبقة الوسطى في القطاع غير الرسمي والتنقـُل أحياناً بين نشاطاته وهو قطاع تنخفض فيه عوائد العمل، كما لا يخضع لأي قوانين للحماية والتأمين والتعويض عند المرض أو العجز أو ترك العمل. [٣٩].

إلى أن انتهى الشكل الاجتماعي إلى ما نحن عليه، فربما لم يعد المجتمع ينقسم إلى طبقات، لكن إلى فئات أو شرائح، وكل فئة أو شريحة لها خصوصيتها، مع اختلاف وتنوع الفئات وتنوع نوع العلاقات و كاد التكامل الإنساني أن يغيب .

الفئة: قد تكون فئة مهنية (محامون- أعمال فنية)، أو نوعية (رجل – امرأة) أو دينية (متشدد – متطرّف- أصولي- معتدل – منتفع)، أو فئة سياسية (حاكمة – معارضة)، أو اقتصادية بما تمليه آليات السوق وليس فئة اقتصادية ثابتة، والنتيجة أن كل فئة تعي مصالحها فقط وتعمل من أجل هذا الصالح الخاص دون الالتفات للصالح العام وربما على حسابه فلم يعد هناك وجود متماسك لتيارات تمثل مصالح الطبقة في إجمالها[٤٠].

ويرى د. جلال أمين أن افتقار المجتمع لمشروع وطني أو قومي مرجعه أن لكل فرد مشروعه القومي، ولكل فئة مشروعها القومي الذي يتلخـص

---

[٣٩] د. عبد الباسط عبد المعطي، الطبقة الوسطى من التحرير للتقصير(القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٦)،ص ص ١٠٢-١٠٣.

[٤٠] د.احمد حجازي، الطبقة الوسطى وثقافة التهميش، دورية الديمقراطية، عدد ١٦- ٢٠٠٦م، ص ٥٢، انظر أيضا دعاء علام، في أدبيات الطبقة الوسطى، دورية الديمقراطية، المرجع السابق، ص ١٤٠.

في مشروع الصعود والترقـــي كما أن المجتمع بكامله يدور في فلك مشروعات الطبقة المسيطرة أو الأكثر تأثيرا، فمشروع النهضة ليس مفقودًا بل تغير مضمونه بتغير الطبقات المؤثرة والذي ينحصر في نقطتين:

* محاولة التشبـــث وعدم السقوط
* و محاولة الصعود وانتهاز فرص قد لا تدوم[41]

و هكذا نرى أن القضية خرجت من اهتمامات و أنشطة و تطور طبقة وسطى لها خصائصها و بدأت تحركها لتشمل أيضا مكانة المرأة والرجل إلى طبقة جديدة لها أولويات مختلفة و أنماط قد تحتاج إلى وقفة جديدة

٣. تأثير سنوات الانفتاح

من الواضح أن التغيرات التي تطرأ على المجتمع وتؤثر على الوضع الطبقي تلقي بظلالها على منظومة قيم المجتمع بشكل عام والمنظومة التي تميز الطبقة بشكل خاص، فالانتقال السريع بين عدة نظم بداية من نظام شبه ليبرالي في بدايات القرن العشرين و مرورا بالاشتراكية و الوصول إلى نظام الانفتاح الاقتصادي ، وما يعقب ذلك من تغيير في مفاهيم الأجيال المتلاحقة، يضع الأجيال في مواجهة بعضها البعض، فالأبناء يعتنقون فكراً مخالفاً لما نشأ عليه الآباء، فإذا كانت تلك المواجهة من طبيعة الأمور فكم بالحري في ظل متغيرات يصعب ملاحقتها و التكيف مع ظروف المجتمع الجديدة ، فقد تنشأ المرأة على قيم ولكنها تواجه في مرحلة أخرى من عمرها قيماً مختلفة ، نظراً للتغير الذي يصيب الحياة العامة في المجتمع.

---

[41] د.جلال أمين، نحو تفسير جديد، المرجع السابق، ص ٢١٨.

• و ماذا عن تحول القيم على مستوى الأسرة التي تشهد تغيرات اقتصادية حاسمة تجعلها تحاول التشبُّث بوضعها الاجتماعي القائم خوفا من السقوط لطبقات أدنى، أو العكس تحاول الإسراع إلى الصعود لطبقات أعلى في ظل الظروف المتاحة للصعود السريع نتيجة لظهور أنشطة تسمح بذلك وتعتمد في الغالب على أعمال غير منتجة أو ربما غير مشروعة، وفي كلا الحالتين قد تضعف مكانة القيم وتميل الروابط الأسرية إلى التفكك لأكثر من سبب فالظروف التي تم فيها الزواج لم تعد قائمة حيث احتل الزوج أو الزوجة مكانة جديدة نتيجة للفرص التي استجدت كما أن الصعود المادي الذي قد يترتب على المستجدات يزعزع الارتباطات القديمة [٤٢]

• لعل هذا الطرح يفسر آراء بعض الكُتّاب فيما يختص بما يشهده الواقع المعاصر، ففي دراسة ميدانية اتضح من خلالها أن النساء وعلى مر أجيال ثلاثة تأثرت بمفاهيم المجتمع العامة بداية من ثورة يوليو ١٩٥٢ ثم عهد الرئيس السادات وعصر الانفتاح إلي التفكير المادي في قيمة العمل ، ذلك الفكر الذي يتعارض مع المفاهيم التي نشأت عليها المرأة حيث كانت النساء الناجحات مهنياً يطلبن العمل الذي يمنحهن المكانة المعنوية قبل المادية. لكن صراعا قد احتدم بين النساء الناجحات بنسب مختلفة وبتكيف يختلف مداه من جيل لآخر بعد أن تغيرت الظروف الاقتصادية [٤٣]. ولذلك نجد أن نسق القيم الذي تتبناه الأكاديميات من الجيل الأول قد يجعلهن يعشن صراعاً لا يحل إلا بالبقاء في العمل ، حتى وإن كان الدخل من العمل رمزياً ولا يتناسب مع إمكاناتها العلمية أحيانا ، مما ولَّد نوعاً من الضيق والحرج في الوسط الأكاديمي من قانون الجامعات الجديد.[٤٤]

---

[٤٢] د. جلال أمين ، نحو تفسير جديد، المرجع السابق ص ٢٠٤، ٢٠٥.
[٤٣] د. أحمد زايد، المرجع السابق، ص ٣٩٧.[
[٤٤] د. أحمد زايد، المرجع السابق، ص ١٩٩.

❋ كما كتب أحمد زايد عن أساليب الحياة التي تتميز بطابع الخشونة نتيجة للأوضاع الراهنة ليس على المستوى المحلي فقط ولكن على المستوى الدولي فرأى أن هناك مجموعة من التغيرات التي لم تعد النظريات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية قادرة على تفسيرها. ويمكن القول أن التغير في المجال الاقتصادي والاجتماعي والسياسي هو في حالة ثورة على الأشكال التقليدية التي كانت سائدة لقرون مضت. وكنتيجة طبيعية لهذه الحالة يظهر الانقسام والانغلاق على الذات؛ إنسان \ ضد الإنسان\ الجماعة ضد الجماعة\ الكيان ضد الكيان وهو ما يطلق عليه (الآخر) فحينما يتصور الإنسان ذاته في مقابل إنسان آخر لا يشعر بالشركة معه وعندما تتعصب جماعة ضد أخرى فإنها تبحث عن مزايا هذه الجماعة مقابل نقائص الجماعات التي تراها كجماعات (مغايرة). وفي هذه الحالة العقلية والمادية يبحث كل شخص\ جماعة\كيان عن أوجه قوته التي يراها تميزه عن غيره في محاولة لتأمين فرصته على حساب فرص الآخرين في الكسب والعيش والوجود والمكانة[٤٥] فلا وجود لعلاقات أزلية فما يعتبر عين الصواب في حين قد يصبح غير مناسب في أحيان أخرى فالخطاب لا يحدد الأشياء بل الممارسة التي تتحدد في ظل تحولات الواقع .

---

[٤٥] د.أحمد زايد ، المرجع لسابق،ص ٣٩٧.



الفصل الرابع

القانون

هل هو نصير المرأة؟

تقول فريدة النقاش في كتابها حدائق النساء : "حين نبحث عن حقوق المرأة نجد أنفسنا أمام مجموعة من الاجتهادات تأسست جميعاً علي مدارس متباينة في الفقه بمذاهبه الخمسة: المالكي والحنبلي والحنفي والشافعي والجعفري، وهذا الفعل تشارك فيه الدولة الحركات السياسية والدينية عندما تطلب الفتوى في الأمور السياسية والاجتماعية من الأزهر ودار الإفتاء في قضايا هي من صميم العلاقات المدنية المتعلقة بموازين القوة الاجتماعية مثل العلاقة بين المالك والمستأجر في الأرض الزراعية أو أرباح البنوك..الخ"

حظيت قضايا المرأة بالنصيب الأكبر من الإحالة الدائمة للفقهي ولم تبق إلا مساحة محدودة ومعزولة للاجتهادات الأخرى من خارجه لأنها تعد في هذه الحالة منافية للدستور بحكم المادة الثانية منه (الشريعة الإسلامية مصدر السلطات) ، أو هكذا يسارع الشيوخ إلى القول[٤٦].

- ففي هذا الميدان تحديداً أي ميدان – حقوق المرأة – لا يمكن الاعتداد بنص الدستور بخصوص مبدئي العدل والمساواة بصورة أساسية وباعتباره سنداً للقانون أي سندا لتطبيق هذين المبدأين.
- وتضيف قائلة : إن منطق الجماعات الإسلامية وكل الرافضين لعمل المرأة يفترض أن التربية هي مهمة المرأة وهم بذلك يغفلون خطورة الدور الذي يقوم به المجتمع بكافة مؤسساته القوية الأخرى إضافة لمؤسسة الأسرة مثل التعليم والإعلام والنوادي الرياضية والاجتماعية .... الخ ، فالفصل هنا لا يسانده الواقع أي فصل دور المرأة بخصوص تربية النشء عن دور المؤسسات الأخرى في مهمة التربية، والواقع أن التربية عملية مجتمعية ، فضلاً عن أن الأم التي يدعون لتفرغها للأبناء هي قادمة بدورها من ثقافة وعلاقات المجتمع فهي أيضا متأثرة بما يدور فيه من أفكار ومبادئ.
- ولو أننا نظرنا إلى الكنيسة فلن نجد اختلافا كبيرا في موقفها من المرأة عما ترصده الكاتبة، فحججها و اعتمادها على النصوص الدينية جاهز و معد إعدادا جيدا ، ومن ناحية الآراء اللاهوتية التي تستند إليها فلن تعجز الكنيسة عن إيجاد أراء تقترب من الأصولية في هذا المجال حتى في آراء بعض أباء الكنيسة ، بل إن الوارد من الخارج الآن من

---

[٤٦] النقاش، المرجع السابق، ص ٢٩ .

مدارس متعددة يميل أغلبها إلى السلفية والأصولية ويغني عن البحث عن مصادر لاهوتية قديمة، فالرأسمالية الطفيلية التي طغت على مجتمعات بأسرها تميل إلى تغذية الفكر السلفي و الأصولي الذي يوافق ميولها والذي تضع انتشاره كشرط للمنح التي تغذي بها الجهات الممنوحة من معاهد ومدارس لاهوتية[47]

• وكما تبدي النقاش ملاحظتها بخصوص الإحالة الدائمة إلي الفقهي (وأيضا اللاهوتي) تجنباً للقانون في قضايا حقوق المرأة فإن ذلك يؤدي إلي مزيد من إهدار هذه الحقوق "فإحالة هذا الحق المدني الذي يترتب على إعمال مبدأ المساواة ليس إحالة إلي الفقهي وإنما إلي المجتمع البطريركي الراسخ الجذور ، والذي ترسَّخ عبر الزمن بعد سقوط المجتمع الأمومي الذي جرَّد المرأة من حقوق كثيرة كانت تتمتع بها ، حيث كان مبدأ المساواة في ذلك الزمن القديم سائداً بطريقة فطرية"[48].

• وتضيف النقاش: و كما يقول الشيخ محمد الغزالي : "المأساة أننا نحن المسلمين مولعون بضم تقاليدنا وآرائنا إلي عقائد الإسلام وشرائعه لتكون ديناً مع الدين" . و لا أعتقد أن ولع المسيحيين يخالف ذلك الاتجاه.

• تعالوا ننظر إلى المسيحيين الذين لا يستاءون من هذا الخلط فبعضهم لا يستاء مثلا من قوانين المواريث في مصر، فإذا طالبت المرأة المسيحية بالمساواة في نسب الميراث في حالة تقسيم بين إخوة وأخوات فكثيرا ما يكون الرد هو التنصل من المسئولية بدعوى أن هناك قانونا وعلينا أن نطبقه، مع الأخذ في الاعتبار الارتياح و الترحيب بهذا القانون.

وتضيف فريدة " لكن المعركة في ميدان الفقه المستنير والتأويل التقدمي للقرآن والسنة لن يكتب لها النجاح دون أن تؤسس الحركات النسائية

---

[47] انظر د. مراد وهبة، ملاك الحقيقية المطلقة (القاهرة: مكتبة الأسرة، ١٩٩٩) ص ٣٤٧.

[48] فريدة النقاش، المرجع السابق، ص ٣٣.

بصبر ودأب لمرجعية جديدة تنهض على المدني وحده. والواقع أن النقاش تنبر على نقطة مهمة فالحركات النسائية إذا التفتت لأهمية مرجعيتها فإنها تكون قد قطعت شوطا ملحوظا على طريــق القــضية ، وإذا إذا نجحــت بالفعل في تأسيس مرجعية تقوم على أساس مدني أي بدون خلط الــديني بالمدني فهذا بحد ذاته سيُحسب لها نجاحا قد يخــدم قــضايا كثيــرة فــي المجتمع ما تزال معلّقة بين الديني- المدني ، وهذا بدوره ينــسحب علــى المجتمع المدني ذي التوجه الديني ومنه رابطة السيدات الإنجيلية –الكنيسة الإنجيلية بمصر-، فأين لنا بقيادة تملك قدرا من الجــرأة و الموضــوعية فترجع قضية المرأة إلى أسانيد مدنية تقوم على المبدأين اللذين ذكرتهمــا فريدة النقاش أي مبدأي العدل والمساواة بصورة أساسية.

١. القانون بين المنح و المنع

أما عندما نعرض بعضا من أمثلة القوانين التي لا تقف كثيرا في صــف المرأة فقد تناولت عدة كتب عمل حــصر لنــصوص القــانون الجنــائي والمدني و قانون الأحوال الشخصية وغيرها و التــي توضــح التمييــز البيــّن بين الجنسين لكننا هنا نذكر أمثلة بسيطة فهــذا لــيس موضــوعنا الأساسي :

أ. المنع من السفر

ترى النقاش أن المنع من السفر إلا بأذن رجل وأحياناً موافقــة الــشرطة الآداب تأسس على النظرة لجسد المرأة باعتباره عورة وخطراً كبيراً على الشرف ، لذلك ينبغي أن يظل هذا الجسد موضوعاً تحت الرقابة " فهنــاك فزع ذكوري غامض من أن يكون غياب المرأة عن المراقبة فرصة لهــا للعبث بشرف الأسرة القبيلة" .و الواقع أن هذه النظرة تبرر الكثير جدا من التعاملات التي تدور بين الجنسين و في كافة المجالات التي تجمع بينهمــا سواء في الأسرة أو الزمالة أو حتى مجرد التواجد في الطريق العــام أو

وسائل المواصلات فكل القيود المتاحة يمكن اللجوء إليها تحسبا لوقوع هذا الخطر و منها المظهر العام و حظر التواجد في أماكن معينة بل والترهيب و التخويف و توصيل رسالة تحمل الشك و الحذر فلا مكان للألفة و الثقة و الطمأنينة.

- وتضيف النقاش: "للمنع من السفر أصول قوية في الفقه المحافظ ينتقدها الباحثون الإسلاميون المستنيرون لكنه النقد الذي يقف فقط عند حدود الدعوة إلي تخفيف القيد والمزيد من المرونة وليس إلغاء القيود نهائياً على سفر المرأة ، أي هو تخفيف في الدرجة وليس في النوع بمعنى أن قيد المنع من السفر باق لكن يختلف في درجة شدته

ب. الطاعة أو الولاية على المرأة [٤٩]

وتظهر في هذه النصوص فكرتان محوريتان أولاهما أن المرأة الزوجة ليست شخصاً حراً ومواطناً له حقوق ثابتة وإن كل ما يمكن أن تتمتع به من حرية أو حقوق مشروط بإرادة الرجل – الزوج الذي يمنح أو يمنع والفكرة هي جسد المرأة العورة وما يحدثه من قلق وتوتر " و لذا لزمت حراسته ومراقبته" حتى لو كانت تقصد بسفرها أداء فريضة الحج" .كما أن ظواهر العنف المجتمعي ترتبط بدرجة كبيرة بالدور الذي يلعبه الإعلام المتأثر بالخطاب الديني السلفي الذي يصر على تقديم المرأة في صورة الرذيلة والفُجر والدونية ويحمّلها مسئولية أي انحرافات داخل المجتمع ولا يثمّن فيها سوى الجوانب التي يمكن أن تعكس استكانتها وضعفها.

- و هنا نشير مرة أخرى إلى دور الإعلام ولجوءه إلى التنميط ودوره الخطر في هذا المجال كما سبق ذكره، فالنمط أداة الإعلام السهلة في

---

[٤٩] فريدة النقاش، المرجع السابق، ص ٣٥.

تقديم أفكاره بشكل يسهل تركيبه وفي نفس الوقت يسهل تلقيه بل و تمسك المتلقي به .

٢. القانون و القيم

وإذا عدنا إلى فكرة حلقات المنظومة وتداخل أدوارها فإن تأثير القيم السائدة على الشأن القانوني في قضية المرأة له أثر كبير وحيوي فبداية من توجُّه المرأة إلى ساحة القضاء وإمكانية لجوئها إليه فإن تأثير القيم يؤدي دورا أساسيا في تشجيعها على اتخاذ هذه الخطوات و النظر إليها بعين التقدير بل والاعتراف لها بهذا الحق أو العكس ، ومرورا بالعوائق التي تمنع المرأة من الوصول إلى منصة القضاء و من الجولان في ساحات المحاكم وانتهاء بتأثر القاضي نفسه بمنظومة القيم السائدة سواء بالرؤية الاجتماعية والنظرة التي ينظر بها المجتمع للمرأة وتفوق الرجل عليها والتي على أساسها يضع تقييمه للضرر الواقع على المرأة أو بالاعتراف لها بالحق في اللجوء للقضاء واحترام هذا الحق ،فإن للقيم التي يتمسك بها المجتمع دورا حيويا تؤديه في كل تلك المراحل

و من هذا المنطلق فإن تغيير نصوص في القانون ليس هو الحل الشامل للقضية إن لم يسبقه و يواكبه و يلحقه منظومة قيم تساند المتغيرات و تعمل على التمسك و الأخذ بها خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن تفعيل تلك القوانين المعدّلة أمر يحتاج إلى تفعيل دور القوانين مع دور المؤسسات التي هي بدورها تتأثر بالقيم السائدة ، وإلا فسوف تظل التغييرات مجرد ترديد شعارات في شكل مواجهات كلامية لا أكثر لن ينتهي إلا إلي مزيد من التبعية والتخلف والاستبداد فهو في النهاية (كلام مجالس) أو على الأقل يحقق أقل عائد ممكن ولا يصل إطلاقا إلى ما يتضمنه من كل تلك المواجهات الكلامية، فالتعاليم و نصوص القوانين هي مجرد كلام نظري -إن لم تكن حبرا على ورق -بدون أن يشملها قيام

عمل مؤسسي مبني على قواعد تضمن – ليس فقط للمرأة ولكن للمجتمع كما اتفقنا على تعريفه- حقوقا ثابتة يحميها تشريع وقانون ويساندها تراكم أعراف وقيم جديدة تتولى رعايتها مؤسسات المجتمع المدني فسوف تظل تردد كلام المجالس الذي ينفض لتبقي المظالم الأساسية، فحديث هذه المجالس ليس إلا لغوا بل تسترا على الأوضاع الظالمة إن لم يكن مساندة لها.

● فقد يكفل القانون للمرأة حقوقا في مجال تولي الوظائف العليا والترقي إلى أعلى المناصب على سبيل المثال، لكن القيم السائدة تفعل فعلها . وليس موضوع الموافقة على تعيين المرأة في وظيفة مأذون عام ٢٠٠٨ بعيدة عن الذاكرة فبالفعل تمت الموافقة ولكن بالفعل أيضا لم تمارس المهنة أو تمارسها على استحياء واضح- بتأثير الموروث وبالفعل صدر قرار السنودس برسامة المرأة شيخا عام ٢٠٠٧ وبالفعل أيضا لم نر لها دور فاعل ، وللأسف يأخذ المجتمع خطوات للوراء فقد عرفت الثلاثينيات المرأة مقرئا للقرآن الكريم وطالبة في مدرسة للمبشرات وكلا الدورين لم يعد لهما وجود فالخطاب ليس هو الذي يحدد الفعل ويرسي الأمر الواقع لأن المبادئ وحدها مهما علت وسمت لا يمكنها أن تبني مجتمعا، فالمناداة بالمبادئ و القوانين لابد أن يرى تحقيقا على أرض الواقع .

٣.أنصاف الحلول، القانون ظالما أم مظلوما

إن العلاقة بين الجنسين تحتاج لمعالجة أسباب الإصرار على الاحتفاظ بالفروق أو بالخضوع لنظام تصاعدي أبوي و الخضوع للفكر الديني المحافظ . و المشكلة الأكبر أنه وحتى حين تبذل بعض المحاولات لتصحيح الأوضاع فإن تلك المحاولات تكتفي إما بحلول جزئية أو بتغيير شكل القيود أو قد تكون هناك منفعة من وراء فتح أبواب المشاركة يسعى إليها المجتمع أو السلطة أو من يتاجر بالقضية أو قد تكون لمجرد الوجاهة و المباهاة بصورة تبدو تقدمية لمكانة المرأة و لعل ما يثير القلق فيما يختص بهذا الموضوع هو أن كل طرف من أطراف المشتغلين بالدين

يحاول أن يثبت أن المرأة تمتعت بحقوق لن تجدها عند أي من الأطـراف الأخرى ولا حتى فلسفة أو ثقافـة أخـرى ، حتـى أشـكال الإجحـاف والانتقاص تجد ما يلبسها ثوب التفوق والميزات الكبرى و ما ذلك التقسيم الإلهي للأدوار حيث تقوم المرأة بأعظم وظيفة في الوجود هي الأمومة إلا أسهل طريقة أمام كل من الفقه الإسلامي واللاهوت المسيحي فكلاهمـا ينادي بأن المرأة تحتل مكانة متفوقة فإذا اصطدم بتدهور أوضاع المـرأة فالنصوص جاهزة لكي تؤخذ حرفيا دون الالتفات إلى خلفيـة وظـروف هذه النصوص فيلجأ كلاهما إلى " الأوامر الإلهية" وكلاهما قادر علـى تحويل القيود التي تفرض على المرأة إلى امتيازات عليها أن "تتقنع "بها وهنا يتعطّل كلا من النص القانوني والدور المؤسسي الذي يُفترض أنـه يساند القوانين .الواقع أن هناك حلقة قد تكون مفقـودة وإلـى أن نجـدها ونضمها إلى بقية حلقات المنظومة فلن يؤتي أي جهد ثمره ألا و هي ثقافة احترام القانون. إن ثقافة احترام القانون موضوع مهم يحتاج إلى توجيـه كافة الجهود لترسيخه كقيمة يتوقف عليها سلام وسلامة المجتمع إلى حـد كبير ويعرّف د. روي جود سون – أستاذ العلـوم السياسية – جامعـة جورج تاون ومدير مشروع ثقافة احترام القانون بقوله [٥٠] " لكي يتـضح معنى احترام القانون فلا بد من تعريف المقصود بحكم القـانون : يكـون الحكم في المجتمع للقانون عندما يكون لجميع أفراد المجتمع فرصة فعلية للمشاركة في وضع وتنفيذ القانون على كل فئـات المجتمـع . . . أمـا الحكم عن طريق القانون فهو الذي يقوم الحاكم فيه بفرض القانون علـى الآخرين. .. سيادة القانون تشمل جميع النـاس بـصرف النظـر عـن خلفياتهم .

- أما وصف المجتمعات التي تمارس ثقافة احترام القانون فيصفها بقوله إن الفرد العادي فيها يؤمن بأن المعايير القانونية جزء جوهري من نظـام

---

[٥٠] الديمقراطية عدد ١٦ ، السنة الرابعة ، اكتوبر ٢٠٠٤

العدالة أو أنها النواة التي من خلالها يمكن تحقيق العدالة ويؤمن بأن مثل هذه القوانين سوف ترفع نوعية الحياة بالنسبة للفرد وللمجتمع على السواء"

أترانا نعود فنكرر ما بدأنا به بحثنا فنقول إننا أمام منظومة مترابطة الحلقات؟ أم أننا نشعر أننا أمام منظومة تلف حلقاتها حول أعناقنا وتستصرخنا أن تغيروا وإلا فإن الحكم لن يكون في صالحكم؟!!

ويحدد د. روي ثلاثة قطاعات لها دور في التطوير الثقافي نحو قيمة ثقافة القانون وهي:

- التعليم المدني في المدارس
- ومركز المرجعيات الأخلاقية وعلى سبيل المثال المؤسسات الدينية التي هي أكثر عوامل التأثير في التطوير الثقافي والفنانين والكتاب والشخصيات العامة
- أما القطاع الثالث فهو الإعلام والثقافة لعامة

وهنا نتساءل عن دور المجتمع المدني في ترسيخ قيم جديدة تعمل على تجديد القيم السائدة وكذلك دور الإعلام

الفصل الخامس

المرأة عند بعض الفلاسفة الغربيين

كتبت "سوزان أوكين " كتابا عنوانه" النساء في الفكر السياسي الغربي" تناولت فيه تطور الفكر الفلسفي بخصوص قضية المرأة ، وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية إمام عبد الفتاح[٥١] وتصدّر المترجم مقدمة الكتاب فقال :" إن آراء الفلاسفة تكشف أثر العادات والتقاليد في تفكير الفلاسفة ". أما المؤلفة فتبدأ كتابها بأفلاطون الذي يرى أن جنس الأنثى خُلق من أنفس رجال أشرار وهذا ما يتفق مع التراث اليوناني الذي كان يحتفظ للمرأة بكراهية كبيرة وينظر لها باحتقار فيع رأي أهم فلاسفة الغرب في قضية المرأة ومكانتها في مجتمعاتهم.

---

[٥١] سوزان موللر أوكين، النساء عند الفلاسفة الغربيين ، ترجمة إمام عبد الفتاح (مكتبة الأسرة ،القاهرة: ٢٠٠٥) تقديم المترجم.

➢ كان أفلاطون يصنّف المرأة مع الأطفال والأشرار والمخبولين من الرجال أو مع الحيوانات والقطعان

➢ و أما روسو فقد واصل الأخذ بالتراث الغربي رغم أنه يخالف رؤيته في الأخلاق والنظرية الاجتماعية، فالمرأة عند روسو مجرد موضوع جنسي للرجل وعلى النساء أن ينحصرن داخل بيوتهن مع الرغبة في فصل الجنسين وانعزالهما حتى داخل المنزل . وفي كتاباته يضع خطة للتربية الأخلاقية للنساء مخالفة تماما لما رآه مناسبا للتربية الأخلاقية للرجال ، و أما دعوته للمساواة فيقصد بها المساواة بين الرجال فقط ولذلك فإن ما جاء في كتابه " العقد الاجتماعي" من إيمانه بأن الإنسان وُلد حرا فهو يتوجه بخطابه إلى الرجل دون المرأة. وعلى كل فلن نسمع رأيا ينصف المرأة قبل جون ستيوارت مل الذي دعا إلى المساواة في كتابين متتالين هما " مذهب المنفعة العامة" و " الحرية" إلى أن أفرد كتابا لقضية المرأة وعنوانه" استعباد النساء" و عالج فيه مبدأ تنظيم العلاقات الاجتماعية بين الجنسين وناقش مصدر صعوبة مشكلة المساواة وأرجعه إلى ما يكتنفها من مشاعر و عواطف و انفعالات تجعل من المشكلة صورة أخرى من مشكلة تحرير الزنوج بالولايات المتحدة

و من هذا الملخص الذي جاء بمقدمة الكتاب ننتقل إلى بعض التفاصيل

أفلاطون

● كان رأي أفلاطون في المرأة التي خُلقت من الرجال الأشرار غير العقلاء يلتقي مع التراث اليوناني ونظرته للمرأة فحتى الآلهة الأنثى في التراث اليوناني كانت تُمدح لما فيها من صفات الرجولة[٥٢] .

● لم تكن ممارسة الجنس مع أكثر من امرأة أمرا مكروها (مع الأخذ في الاعتبار مما سيرد من قيو ترجع لأسباب فلسفية لدى أفلاطون سنوردها

---

[٥٢] سوزان موللر، المرجع السابق، ص ٢٥

فيما بعد)وفي نفس الوقت فإن أسوأ جريمة ترتكبها المرأة هي الخيانة، أما دور المرأة فينحصر في وظيفتها الطبيعية كمربية للأطفال ومدبرة للمنزل وهو الدور الذي يقلل من شأن المرأة بدرجة كبيرة في نظـــر أفلاطـــون وعندما رأى أن المرأة يمكن أن تصل لمستوى الحكام والفلاسفة في الدولة المثالية كانت هناك شروط تنفي عن المرأة كل صفة أنثوية لكي يمكنهـــا تحقيق هذا الدور[٥٣] .

•لم يكن للمرأة الحق في اختيارها لوضعها كزوجة وأكبر فضيلة يمكن أن تتحلى بها هي الصمت ، وكانت البغايا على علم بثقافة مجتمعهن أكثر من نساء الطبقة الراقية في المجتمع الأثيني ولذلك نجد الرجل يتحول إلـــيهن في حرية . ألعل هذا الموقف يشبه ما صوّره نجيب محفوظ في رواياتـــه التي تناولت فترة الثلاثينيات وحتى أوائـــل الخمـــسينيات فـــي المجتمـــع المصري؟! على كل فطبقا للثقافة اليونانية فإن الزوجة مخصصة لإنجاب الذرية فقط أما الخليلات والصبيان أيضا فلأجل المتعة واللذة وفي كتابه " المحاورات " يقول أفلاطون: المحظيات مـــن أجـــل الرعايـــة اليوميـــة بأشخاصنا فشخصية المرأة بأي معنى إيجابي لا يعول عليها مطلقـــا فـــي اختيارها كزوجة " وتوضح كتابات أفلاطون إن إيمانـــه بدونيـــة المـــرأة ينطبق على أي أنثى بشرية وينسحب على أي عصر فهو إيمان عام بـــأن الرجل كالجنس الأعلى في الطبيعة البشرية هو الذي استطاع أن يـــصبح من الفضلاء، أما الجبناء والأشرار فسوف يعاقبون بأن يولدوا من جديـــد نساء .

• وكان لدى أفلاطون مرتكزات أساسية جعلته ينتهي إلى هذا الرأي في المرأة، بل إن الحب الأفلاطوني يرجع إلى رأيه في علاقة المرأة بالرجل فقد كان يرى أن حب النساء أمر مستهجن ومكروه و مادام أن الحب بين

---

[٥٣]انظر سوزان موللر، المرجع السابق ، ص ٣٤.

رجل وامرأة أمر مرفوض فإن العلاقة الجنسية بينهما بالتالي مرفوضة وإن كان البديل هو الجنسية المثلية التي يراها هي أيضا مستهجنة فهي في رأيه انحطاط ليس فقط للجانب الإنساني في البشر بل أيضا للجانب الحيواني فيه (رغم أن الجنسية المثلية كانت متفشية في المجتمع في ذلك الوقت – القرن الخامس ق.م.) وهنا يمكن أن نفهم الحب الأفلاطوني على أنه مبني على الاحتياج لإعلاء الدوافع غير المرغوب فيها.وكان لفكرة استهجان الحب بين الرجل والمرأة عند كلا من سقراط وأفلاطون فلسفة أخرى وهي القضاء على المصالح الذاتية الأنانية كضرورة قصوى يجب أن تتوافر بالذات عند طبقة (الحُراس)أي الحكام في جمهوريته الفاضلة فالحُراس هم الذين سيتولون حكم المواطنين وعليهم أن يعملوا على إسعادهم فالحُراس يحبون المجتمع كله ولذلك فالمثل الأعلى للحراس عند أفلاطون هو أن كل شيء مشاع بين الأصدقاء ومنها الملكية للنساء والأطفال. وطبقة الحُراس هي وحدها التي يمكن أن تعيش على مستوى المثل الأعلى للملكية المشتركة ووحدة المصالح فلم يمد أفلاطون نطاق الملكية الجماعية إلى الطبقة الدنيا في مدينته الفاضلة فهذا فوق طاقة تلك الطبقة.

● رأي أفلاطون أن الملكية الخاصة للنساء ترتبط بفساد الأنظمة وعندما تصبح النساء والملكية مشاعا فهي نفس اللحظة التي تنهض فيها الدولة، والعكس صحيح يبدأ الانحطاط عندما تصبح المرأة ملكية خاصة برجل واحد وذلك يرجع إلى اهتمامها الخاص بالمصالح الجزئية عندما يبدأ الحكام بامتلاك الأرض والمنازل واقتناء المال ليكوّنوا لأنفسهم كنوزا منزلية وزوجات محبوبات فيفشلون كحراس للشعب وتبدأ المدينة في الانهيار فاقتناء النساء عامل رئيسي في الفساد لأن الزوجة الخاصة تسبب الشقاق والدمار وهي عندما تتذمر على الوضع وتشكو من أن زوجها تعوزه الثروة والمركز فهذا ينقص من قدرها بين النساء الأخريات وهي تنقل لأطفالها الإحساس باحتقار الزوج . من الواضح أن فكرة ملكية

المشاع يعقبها فكرة إلغاء الأسرة إلا أنه هنا تجدر ملاحظة مهمة فالنظام الأسري في أثينا في ذلك الوقت لم يكن يحظى باهتمام كبير خاصة بين الطبقة الراقية فأراء أفلاطون هي في الواقع نظرة الثقافة التي عاش فيها، فالأسرة لم تشغل مكانة كبيرة في معظم الكتابات اليونانية ويندر أن تكون الحياة الأسرية كما نفهمها موجودة في القرن الخامس ق. م. كما لم تكن الأسرة هي المكان الذي تعبر فيه العواطف البشرية العميقة عن نفسها لأن أولئك الذين يتجهون بحبهم نحو النساء وينشئون أسرا كانت علاقتهم مستهجنة، ومن هنا شجع المجتمع العلاقات الجنسية المثلية ففي محاورة " المأدبة" يستهجن أولئك الذين يتجهون بحبهم نحو النساء و ينشئون أسرا ويرى أن الذين لديهم حب روحي عليهم أن يتجهوا للغلمان ، ويظهر البحث الفلسفي والحوار في تلك المحاورة أن أفلاطون و مستمعيه لم ينظروا قط إلى إلغاء الأسرة على أنه قصور حاد في حياتهم العاطفية بل إنه شجع الرجل على معاملة الزوجة بالقسوة والافتخار بعدم الاحترام بل والكراهية، لكن أفلاطون لم يقصد إنهاء كافة الروابط الأولية للقرابة بل أكدها ووسعها فالحُراس كانوا يتخيلون أنهم جميعا أسرة واحدة [٥٤].

●ولعل تلك الخلفية كانت لها أثرها على مجتمعات كورنثوس وغيرها من المدن التي كتب لها بولس الرسول وهذا يلقي الضوء على عبارات كثيرة وردت بخصوص نظام التسرّي والعلاقات الجنسية .

●وفكرة إلغاء الأسرة عند أفلاطون تتبعها ترتيبات مخصصة لإنتاج أفضل سلالة بين زوجين لا يختاران بعضهما وإنما هي علاقة بهدف إنجاب ذرية قوية .

●إن مغزى إلغاء الأسرة عند أفلاطون هو تخليص الحُراس على وجه الخصوص من جميع الارتباطات والعواطف التي يمكن أن تقلل من

---

[٥٤] انظرسوزان موللر، المرجع السابق ص ٤٦، ٤٨.

تكريس جهودهم للدولة ففي رأيه أن الارتباط الأسـري يقـصر اهتمـام الزوج على أسرته وعلى المشاغل البيتية التي تأتي في درجة أقـل مـن الانشغال بالمجتمع، بل إن النساء أنفـسهن فـي رأي أفلاطـون إذا أردن الانضمام إلى الحُرّاس الرجال فعليهن أن يكن مسترجلات فـلا تستـسلم لانفعالاتها وعليها أن تكون قوية وشجاعة .

- والشجاعة في اليونانية تعني حرفيا الرجولة وبالطبع عليها أن تتخفف من الانشغال المنزلي وتربية الأولاد وأن تمـر فـي كافـة التـدريبات الرياضية التي يمر بها الرجال بما فيها التدريبات التي تتطلب السير فـي الشوارع عارية ففي كتابه " القوانين" يأخذ أفلاطون موقف يبدو مغـايرا لفقدانه الرجاء بالكلية في صلاحية المرأة للانضمام للرجال خاصة عنـدما نعرف أنه يضيف قائلا أن كلا الجنسين يجب أن يتلقى تربية متساوية وأن دور التربية والدور الاجتماعي يعول عليها في استعداد كلا الجنسين في الانضمام لطبقة الحُرّاس ويبدو أنه اقتنع أن ما يمارسه المجتمع بخصوص النساء يُعد حماقة فيقول إن عدم اتحاد المرأة والرجل في متابعـة نفـس الأهداف بكل ما لديهما من طاقة يعد الحماقة بعينها ، وتناول دور التربية والرعاية المختلفة التي تقدم للجنسين ودورهمـا فـي إيجـاد الفـروق و الاختلافات في القدرات والإنجـازات وأشـار إلـى نـساء الـسارميتان Sarmitan اللاتي كن يشاركن في القتال على قدم المساواة مع الرجـال لكن يشترط أفلاطون أن على النساء أن يشاركن الرجال في كـل أنمـاط حياتهم ويبحث أفلاطون في بحث تخصيص أدوار معينة للنساء فيقول إن الأشخاص وليس طبقات الأشخاص هم الذين لديهم طبائع تناسب الفنـون المختلفة وليس صحيحا القول بأن الرجال أفضل من النساء في كل شـيء فهناك نساء يفقن الرجال كثيرا في أمور متعددة . لكن هناك سبب خطيـر في تحول رأي أفلاطون وهو سبب يفسّر ذلك التغيير، ففي موقفـه الأول المنحاز ضد المرأة كان قد دعا إلى إلغاء الملكية الخاصة وكـذلك نظـام الأسرة وهنا يبرر روسو تغير موقف أفلاطون بأنه احتـار مـاذا يفعـل

بالمرأة بعد أن فقدت بالكلية دورها ووظيفتها في البيت وتربية الأطفال وهذا هو الدافع وراء تغيير رأيه والدليل أنه وفي مرحلة متأخرة عندما عادت الملكية الفردية لتأخذ مكانها في المجتمع مرة أخرى وعادت الأسرة ككيانٍ اجتماعي عاد أفلاطون بدوره ليعيد المرأة إلى مكانتها السابقة و تخلى مرة أخرى عن الرأي المنحاز للمرأة وعادت المرأة مرة أخرى ملكية خاصة تلحق بممتلكات الرجل [٥٥].

- بقى أن ننظر في وضع النساء المحترمات في اليونان وأيضا في وضع الطبقة الدنيا ، فأما النساء المحترمات فكن محرومات ومحكومات بصدد حياتهن الجنسية فلم يكن مسموحا للمرأة عند اليونان أن تختار شريكا بينما هو له الحق المطلق في أن يتصل بها وينجب منها وأيضا له الحرية في عددٍ من البدائل الجنسية المثلية أو المغايرة أما بالنسبة للطبقات الدنيا فسوف يُحتفظ بهن ربات بيوت على نحو ما يُحتفظ الزُّراع بملكية الأرض وسوف يحتفظ بالأسرة عند الطبقات الدنيا وذلك ضمانا لأفضل استخدام ممكن لجهد أعضاء هذه الطبقة.

أرسطو

أما أرسطو فقد قنّن الوضع الذي لخّصه أفلاطون وذلك عندما حاول أن يضع نظرية فلسفية عن المرأة ليثبت صحة الوضع المتدني للمرأة الذي نتج عنه العادات والتقاليد اليونانية .

أما خطورة نظرية أرسطو عن المرأة بالنسبة لنا فيرجع إلى تكرارها كثيرا في التراث العربي ولعلها وجدت أرضا خصبة في هذا التراث:

- رأى أرسطو أنه كفيلسوف للأخلاق فإن مهمته هي تخليص الآراء و المعايير الأخلاقية المنتشرة بما فيها من تناقض و غموض ، وعنده أن الوضع القائم سواء في مملكة الطبيعة أو في المجال الاجتماعي هو أفضل طريقة وجود الأشياء وذلك يرجع إلى أن الأشياء إنما تكون على ما هي

---

[٥٥] انظر المرجع السابق ص ٥٨-٧٨.

عليه بسبب وظيفتها التي تؤديها ، ومن هنا يأتي تعريف أرسطو للنفس على أنها قدرتها على أداء وظيفتها ، ويعطي مثلا بالفأس ، فجوهر الفأس في الوظيفة التي يؤديها ، ويطبّق نفس الفكرة على الجسم الحي بجملته ، ومن هنا تأتي نظرة أرسطو الة للكون فهي نظرة تصاعدية، والكون مرتّب من النبات إلى الإنسان ثم الأجرام السماوية والآلهة. والأشياء الدنيا موجودة لصالح ما هو أعلى لأن الطبيعة لا تفعل شيئا باطلا، فالنبات مثلا يعطي الطعام لبقاء الحيوان والحيوان لبقاء الإنسان ولكن على حين أن جميع الموجودات البشرية هي موجودات عليا ، فداخل إطار الجنس البشري هناك أيضا نظام تصاعدي، و من هنا فإن الأسرة اليونانية تتألف من أعضاء خاضعين هم الزوجة و الأطفال والعبيد وهذه مؤسسة طبيعية تمثل أفضل صورة للمنزل والبنية الأسرية [٥٦].

- و يرى أرسطو أنه مع أن الإنسان يشارك الحيوانات الدنيا في بعض الوظائف كالتغذية و النمو والإحساس فإنه يتميز عنها بالعقل ، ولذلك فإن الخير الأقصى للإنسان هو الحياة النشطة للمبدأ العقلي و غرضه هو سعادته الخاصة ، ففي حين أن معظم الكائنات تخدم وظيفة ما في علاقتها بموجود أعلى، إلا أن غاية الإنسان هي سعادته الخاصة . و ما يهمنا هنا هو أن كلمة " إنسان" Anthroposعند أرسطو تعني الموجود البشري، لكنه فئة ضئيلة و جنس واحد من الجنس البشري وهو الرجل [٥٧].
- و مادام أن وضع الشخص في الة البشرية يحدد وظيفته فإن الوظيفة تحدد نوع الفضيلة المعينة و المطلوبة لهذا الشخص .

هذا الجنس الأوحد الذي يتطلع إلى الخير الأقصى والسعادة التي يحتاج إليها بجانب عقله يحتاج أيضا إلى مجموعة فضائل خارجية وموجودات

---

[٥٦] انظر سوزان موللر، المرجع السابق ص ٩٤.
[٥٧] انظر سوزان موللر،المرجع السابق ص ٩٦.

مثل الأغنياء والأصدقاء و الأطفال ، وهكذا فإن النساء والحرفيين والتجار و الصناع هم أدوات مساندة لتحقيق السعادة القصوى للإنسان. وطبقا للمذهب الوظيفي الذي يؤمن به أرسطو فإن من هم بالطبيعة محكومون و من هم بالطبيعة حكام تحكمهم علاقة هي خير علاقة للجانبين لأن قدراتهم مختلفة ، ويؤكد أن النساء بالطبيعة هم أدنى من الرجال ولذلك كان من الطبيعي أن يحكمهم الرجال .لكن كلمة (طبيعي) عنده غامضة فأحيانا يشير إلى الطبيعي بمعنى الفطري كمضاد للمكتسب وأحيانا يعترف مثل أفلاطون بأنه يمكن وضع تفرقة ضئيلة جدا بين طبيعة الموجود الناضج والعادات التي اكتسبها خلال حياته [٥٨].

- لم يهتم أرسطو بدراسة خصائص المرأة أو صفاتها بمعزل عن سياق مجتمعه الأثيني الذي حُرمت فيه المرأة من أي امتياز ، مجتمع سيطر عليه الرجل سيطرة تامة و قُهرت فيه المرأة قهرا تاما حتى أنه حدد للمرأة ليس دورها فقط بل حتى الفضائل التي يمكنها أن تتحلّى بها أملاها عليها [٥٩].
- ألعل هذا هو الوضع المجتمعي الذي كان موجودا في زمن بولس الرسول والسياق الذي في ظله كتب رسائله ؟ و هل هذا يلقي ضوءا جيدا على رسائله ووصاياه الخاصة بعلاقة الجنسين؟!
- نعود لأرسطو الذي رأى أن معتقداته عن قدرة البيئة على تشكيل وتغيير الشخصية البشرية لا تخص النساء ، حتى صورة الجنس جعلها أرسطو توافق نظرية الوظائف فالذكر خلال الحيوانات المنوية يزود بالصورة أو النفس أما الأنثى فمن خلال تدفق الطمث تزود بالمادة ، وما دامت الصورة أفضل من المادة وأكثر قدسية فمن الأفضل أيضا أن

---

[٥٨] انظر سوزان موللر، المرجع السابق،ص ٩٦.
[٥٩] المرجع السابق ص ١٠٧.

ينفصل الأعلى عن الأدنى . و من هنا يجد سببا في تفضيله لفصل الــذكر عن الأنثى كلما كان ذلك ممكنا

جان جاك روســو

إن التفرقة بين الجنسين يمكن تفسيرها من منظور أن الفرص التي تتــاح للمرأة أقل من تلك التي للرجل ، أما أولئك الــذين كــان لهــن شــرف الوصول إلى المناصب فإنهن يتميزن بطريقة رائعة . ويرى روســو أن المرأة –إذا سمحت ظروفها – سوف تظهر تفوقا سواء في مجال الأعمال أو حب الفضيلة ، وبأعداد غفيرة وأكثر مما فعل الرجال . وهــو يــشير بالإضافة إلى ذلك إلى وجود عدد من النساء الكاتبات الموهوبات ليبرهن على أن إعطاء النساء فرصاً تظهر إمكانياتهن العقلية الحقيقية. ففي هــذه المرحلة من فكر روسو كان من الواضح أن نقص الفرص كان عاملا من العوامل التي تفسر الاختلاف والتفاوت بين إنجازات الرجال وإنجــازات النساء طوال التاريخ [٦٠].

- أما في مجال الاستعداد الطبيعي عند الجنسين فقد رأى روسو أنه ليس في استطاعة النساء أن يكتشفن المبادئ كما يــستطيع الرجــال ، لكــنهن بالأحرى يجمعن التفاصيل. لكن رأي روسو عن قدرات النــساء يمكــن تفسيره جزئياً من ناحية أنه كان أقل اهتماماً بما (تستطيع) النساء إنجازه أكثر مما (ينبغي عليهن) إنجازه [٦١].

- والسبب الثاني الذي يقدمه روسو لتعضيد البطريركية الأسرية هــو أن للنساء دورات من الكسل وعدم النشاط بسبب وظيفتهن في الإنجاب وعلى الرغم من أن تلك الحجة قد تكون ضعيفة فيما يقول روسو: " فإنها ســبب

---

[٦٠] سوزان موللر، المرجع السابق ، ص ١٥٣.
[٦١] سوزان موللر، المرجع السابق ، ص١٥٤.

كاف لاستبعاد النساء من السلطة" ووضع السلطة الدائمة للأسرة في يد الزوج[٦٢] .لكن روسو لم يحاول أن يستبعد مجموعات معينة من الرجال الذين ربما كانوا غير مناسبين بسبب العرج مثلا أو الذين يعيشون بعيداً جداً عن الاجتماعات أو صنع القرار.ومن مجمل أراء روسو يمكن الاستنتاج انه رأى أن الحكم الذاتي بما له من أهمية فهو قاصر على الرجال فقط فإن روسو يتقدم بعد ذلك ليعترف أن النساء لن يستطعن ممارسة قوتهن إلا عن طريق الاستغلال الناجح لسحرهن الأنثوي[٦٣] .

- ولا شك أن خوف روسو من النساء وتأثيرهن يوضح جانبًا مهمًا من التفسير لهذه المفارقة . لقد كان مقتنعاً تماماً بالحد الذي يعتمد فيه الرجل على المرأة من الناحية الجنسية والعاطفية ، حتى أنه شعر أنه ما لم يكن هناك قهر لها في مجالات أخري ، فإن هذه السيطرة الطبيعية المزعومة لن تعود إلى الرجل. وهكذا نجد أنه في معارضة مباشرة لتأكيده أن الحاجة المركزية للرجل هي أن يكون حراً ، يذهب روسو إلى أن المرأة بتكوينها الطبيعي خلقت لكي تكون معتمدة على غيرها ولتوضح لها الكوابح[٦٤].

- والمرأة لما كانت قد خلقت لإطاعة الرجل وهو بدوره مخلوق ناقص أيضاً (مفعم بالمعايب غالباً ، مملوء بالشوائب دائماً) وكما يقول روسو وجب أن تتعلم مبكراً أن تصبر حتى على الظلم والجور ، وان تتحمل خطأ الزوج من غير شكوى أو تذمر ، وليس عليها أن تكون لطيفة من

---

[٦٢] سوزان مولر، المرجع السابق ، ص ١٦٩.

[٦٣] سوزان مولر، المرجع السابق ، ص ١٨٠.

[٦٤] سوزان مولر، المرجع السابق ، ص ١٨٠.

أجله ، بل من أجل نفسها . ولا تؤدي شراسة النساء و عنـــادهن إلا إلـــى زيادة آلام النساء ، وسوء معاملتهن من أزواجهن . فالأزواج يشعرون أنه لا ينبغي لهن أن يغلبنهم بهذه الأسلحة. ولم يخلقهن الرب فاتنات مقنعـــات العذوبة لينطقن بالشتائم، ولم يجعل لهن تلك الملامح الرقيقـــة ليـــشوهنها بالغضب [٦٥].

- والمرأة المثالية عند روسو، أبعد ما تكون عن الشخص المستقل ذاتيـــاً، أو حتى الشخص المتميز. بل إنها لا تكون قوية إلا لكي تلد أطفالاً أقوياء. ولا تكون عاقلة إلا إلى الحد المطلوب منها لتحافظ على عفتهـــا، ولكـــي تناقش زوجها وتربي أطفالها بحكمة ، ولا تكون جذابة إلا إلى الحد الذي تثير رغبة زوجها الجنسية، لكن بشرط أن لا تهدد سكينة ذهنه.
- إن تفكير المرأة، أو استخدامها لعقلها في أي غرض آخر غيـــر هـــذه الأغراض السابقة ليس فقط غير مطلوب، وإنما هو بغيض بالنـــسبة لهـــا "فذكاء الأنثى" هو طاعون بالنسبة لزوجها، وأطفالها وأصدقائها وخـــدمها ولكل إنسان. فهي من قمة عبقريتها سوف تحتقـــر واجباتهـــا كـــامرأة ، وسوف تشرع دائماً لكي تجعل من نفسها رجلاً . وهكذا نجد أنـــه ينبغـــي على النساء أن يتعلمن أشياء كثيرة لكن بشرط أن تكـــون تلـــك الأشـــياء مناسبة [٦٦].
- ويلوم"روسو" تعاليم الكنيسة بسبب لأنها تُفقد النساء كثيراً من جاذبيتهن مما يؤدي إلى عدم اكتراث أزواجهن بهن ، ولحل هذه المشكلة يقـــول: " تهذب الشابة الإنجليزية من مواهبها ، بعناية لتروق لزوج المستقبل، كمـــا

---

[٦٥] سوزان مولر، المرجع السابق ، ص ١٨١.
[٦٦] سوزان مولر، المرجع السابق ، ص١٨٢.

تهذب الشابة الألمانية مواهبها من أجل دائرة الحريم. ولا شك أن هذه الرغبة تضيف السعادة إلى حياة زوجها ، وتمنعه، وبعد أن يترك عمله وهمومه بدلاً من أن يبحث عن المتع خارج البيت. ولهذا فإن تربية المرأة المثالية تشمل نصيحة لها كيف تتقدم وترفع من المتعة الجنسية لزوج المستقبل، مع التحريمات الدقيقة من التعبير عن أي شكل آخر من أشكال التعبير الجنسي التي ترغب هي فيها .

- وقد وصل "روسو" في مجال إنكار الاستقلال الشخصي للنساء إلى رفضه السماح للمرأة أن تصوغ معتقداتها الدينية فعلى حين أن الشاب عندما يشب بقدر كاف، يُشجَّع على التفكير لنفسه في المسائل الدينية فإن سلوك المرأة في رأي روسو يخضع للرأي العام ، و كذلك يخضع إيمانها للسلطة ، فالابنة ينبغي، بغير نقاش، أن تعتنق دين أمها (الذي هو الطبع دين والدها أيضاً) كما تعتنق الزوجة ديانة زوجها. ويؤكد روسو لو أن هذا الدين تعتنقه كان لغوا، فإن خضوع الأم والأسرة طائعين لحكم الطبيعة يمحو ما في الخطأ من ذنب عند الله [٦٧].

جون ستيوارت مل

ربما اشترك جون ستيوارت مل مع هوبز وجون لوك في إنصاف المرأة ولكن بدرجات متفاوتة وكان أكثرهم إنصافا هو (مل) الذي نبذ البطريركية الأبوية داخل الأسرة و اعترف بحقوق النساء و اهتم أيضا بالمسائل الواسعة والعميقة المؤثرة في الحياة البشرية و المجتمع السياسي ، و اهتم بقيم العدالة والحرية والفردية والديمقراطية . و الهدف النفعي في جذور فلسفته وهو تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس

---

[٦٧] سوزان موللر، المرجع السابق ، ص١٨٦.

وهذا الهدف لا يمكن تحقيقه دون تقدم عقلي وأخلاقي كبيرين للجنس البشري ، ولذلك فإن أحد الأغراض الرئيسة للمؤسسات الاجتماعية والسياسية في رأيه هو تطوير الإمكانيات البشرية إلى أقصى حد ممكن ، يعتبر انشغال " (مل) " بالمرأة تطبيقا لأفكاره المركزية ، فهو لم يستهدف فقط سعادة النساء أنفسهن رغم أن ذلك شكّل جانبا مهما من هدفه بل كان أيضا طلبا بلغ الأهمية لتحسين أحوال البشر . و من هنا فإن معارضته لوضع النساء في مركز ثانوي في جميع جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية كانت تقوم على قناعاته التي تشكّلت لديه وعبّر عنها في كتب كثيرة منها " استعباد النساء" حيث يرى أن الخضوع المشروع من أحد الجنسين للآخر هو خطأ في حد ذاته وهو عقبة رئيسة أمام تحسين أحوال البشر . هذه الفكرة اعتنقها في سن مبكرة ويقول هو عن نفسه :" منذ أن بدأت أفكر في المسائل الاجتماعية والسياسية بدأت معي هذه الفكرة واستمرت تنمو وتقوى كلما تقدم التفكير وكثرت تجارب الحياة" . وأشار الكتاب الذي تناول سيرته الذاتية عن مدى اهتمامه المستمر بوضع النساء [٦٨].

- كانت أفكار (مل) غريبة على مجتمع منتصف القرن التاسع عشر ولكن شاركه فيها جماعات متعددة من المفكرين الذين كان على اتصال بهم ، ومنهم (بنتام) الذي رأى أنه من السابق لأوانه السماح لموضوع حق النساء في الاقتراع رغم اقتناعه بأن النقاط الحاسمة الموجودة في الفروق بين الجنسين ليست بالتأكيد فطرية وليست ضرورية
- يقول (مل) في كتابه عن الحرية الطبيعية للبشر أنها ليست آلة تُبنى على غرار نموذج معين وإنما هي شجرة تحتاج إلى أن تنمو وتطورنفسها من جميع الجوانب طبقا لمؤشرات القوى الإداخلية التي تجعلها كائنا حيا.

---

[٦٨] سوزان موللر، المرجع السابق ، ص ص ٢٢٤-٢٢٦.

• و يقرر (مل) أن المنفعة المباشرة التي تنشأ عن تحرير النساء سوف تكون إضافة لسعادة النساء عندما يتخلصن من حياة خضوع الإرادة للآخرين ، وكان يقول هذا في وقت لم تكن للمرأة فيه من الناحية العملية فرصة لشغل أي وظيفة سوى علاقة الزوجية التي تقبلها مضطرة قانونا كما لم يكن لها حق الملكية الخاصة . لكن كان يقول إن السعادة بالنسبة للموجودات البشرية هي أن يقبلوا عملهم المألوف برضا وأن يختاروا الطريقة التي يعيشون بها [٦٩].

• كما كان يرى أن حرية النساء تضيف التقدم للمجتمع ككل فإعداد النساء بالتعليم وفتح مجال العمل وتحريرهن من عبودية الخدمة المنزلية الإجبارية سوف يكون له نتائج مضاعفة مجموعة المَلَكات العقلية المتاحة لخدمة البشرية هذا الإضافة إلى نتائج قيمة جدا بالنسبة للرجال ، فاستثارة التنافس النسائي وصحبة شريك متعلم بالمثل سوف يؤدي كذلك إلى تطور عقلي أعظم عند الرجال أيضا. وإذا أخذنا بوجهة النظر القائلة بأن أي مجتمع أو فرد لا يتحسن فإنه يتدهور، فإن (مل) يشدّد على النتائج الضارة التي يمكن أن تحدثها الصحبة لزوجة غير متعلمة طائشة وتافهة على الرجل حتى ولو كانت له في السابق اهتمامات عقلية حادة.

• ويرى (مل) أن تبرير نظام الطبقات المغلقة وأيضا تبرير الاحتفاظ بنظام الرق بحجة المصلحة الاجتماعية كانت في عصره تبدو ظالمة تماما لدرجة أن الناس لا بد وأن يتعجبوا كيف كان بإمكان تلك الطبقات احتمال هذا التفاوت لكنهم ينسون أنهم يحتملون نفس التفاوت عندما يقبلون استعباد النساء. ويقول (مل) إن الزواج هو بالفعل العبودية الوحيدة التي يعرفها

---

[٦٩] سوزان موللر، المرجع السابق ، ص٢٣٩.

القانون فلم يعد هناك عبيد من الناحية القانونية سوى ربة المنـــزل. رأى (مل) أنه لكي ينادي بالمساواة على أساس مبدأ المعاملة العادلة فإن عليـــه أن يبرهن على أمرين [٧٠].

١- دحض الزعم القائل بأن النساء أدنى بالفطرة

٢- التخلص من معاملة النساء غير المتساوية ستكون نافعة بمعنى أنهـــا سوف تسهم في الرخاء للعالم وللجميع

ولذلك رأى أن الفروق الموجودة في الشخصية و في العقل بين الرجـــال والنساء ترجع إلى مواقف مختلفة تماما في المجتمع نحو الجنسين ابتـــداء من طفولتهم المبكرة وصفات التربية التي قُدِّمت لهم ورفض (مل) بشدة أي تفاوت فطري بين الجنسين بمعزل عن القوة البدنية ، وحتى ذلك فهـــو عنده أمر مشكوك فيه أيضا [٧١].

- أما فيما يتعلق بالمبدأ الخاص بطبيعة النساء وصفاتهن الطبيعيـــة فـــإن (مل) يشير إلى أن هذه الفكرة تختلف باختلاف الثقافات ، ففـــي الـــشرق يُنظر للمرأة على أنها شهوانية بالطبيعة،وفي انجلترا هي باردة بالطبيعـــة، أما في فرنسا فهي متقلبة بالطبيعة وهذا كاف لكي نتشكك في المعتقد مـــن أساسه ، فالمرأة في كل من تلك الثقافات تحدد لها دورا نسائيا تبعا لنظرة كل ثقافة ولذلك فإن (مل) يرى أنه لا يمكن إقامة البرهان العقلي علـــى أن طبيعة كلا الجنسين تجعله يتكيف مع وظيفتـــه و مركـــزه الـــراهن ، ويؤكد على أنه يستحيل على أن يكون في الإمكان معرفة طبيعة الجنسين طالما أنه لم يُختبر إلا في الحالة الراهنة فلو أن الرجال وجدوا في مجتمع ما بغير نساء ولو أنه كان هناك مجتمع بلا رجال أو مجتمع من الرجـــال والنساء، لم تكن النساء فيه خاضعات لسيرة لرجال فربما كنا قـــد عرفنـــا شيئا مؤكدا عن الاختلافات العقلية والمعنوية التي قد تكون متأصـــلة فـــي

---

[٧٠] سوزان موللر، المرجع السابق ، ص٢٤١.

[٧١] سوزان موللر، المرجع السابق ، ص ٢٤٢.

طبعه كل جنس ، وكما لا يمكن اكتشاف ما هو طبيعي بين الجنسين إلا بالسماح لهما معا بالنمو و التطور واستثمار ما لديهما من ملَكات في جو من الحرية [٧٢].

- و يقول (مل) إن أفضل الناس من الجنسين من تجربته الخاصة هم من اجتمعت لديهم أعلى خصائص ما يُسمى بالرجولة مع أعلى خصائص ما يُسمى بالأنوثة [٧٣]. ويتساءل قائلا إلى أي حد تم تدريب النساء على الابتعاد عن المهن والوظائف التي احتفظ بها الرجال بدلا من تدريبهن عليها و مع ذلك يرى أن النساء أنجزن قدرا ملحوظا من النجاح في مجالات كثيرة رغم ثقل الظروف وقلة التعليم وضغوط الأحكام التي تُمارس ضدهن، ويستشهد بعدة أسماء من النساء في عصره ، فروسو حدد الخصائص الطبيعية للمرأة على أنها حدسية وأنها قادرة على إدارة شئون الحياة بنسبة ضعيفة وتنقصها القدرة على الفكر العقلي ولكن علينا أن ننظر إلى الطريقة التي تتدرب بها الفتيات على مواجهة الأعمال المنزلية التافهة بينما البنون يتعلمون الآداب والعلوم، ولذلك فإن (مل) خلص إلى أن معاملة النساء بطريقة متحيزة ليس لها أساس عقلي في طبيعة الجنسين و هي بالإضافة لذلك ضارة من الناحية الاجتماعية، وأن معاملة النساء كأنداد سوف تكون مفيدة لسعادة الجميع وتقدمهم . و من ثم ترتبط العدالة مثل المساواة في حجج (مل) المؤيدة لقضية المرأة بموضوع دائم هو صلاح الجنس البشري [٧٤] .ويرى أن معاملة النساء

---

[٧٢] سوزان موللر، المرجع السابق ، ص ٢٣٤.
[٧٣] سوزان موللر، المرجع السابق ، ص ٢٦٤.
[٧٤] سوزان موللر، المرجع السابق ، ص ٢٥١.

بطريقة ظالمة لها نتائج ضارة فسوف يحاولن اكتساب النفوذ بطرق مدمّرة و بالتالي استخدامها لأغراض أنانية ويتبع ذلك فيما يجري داخل نطاق الأسرة عندما تلتجئ النساء إلى المكر والدهاء والأساليب الخدّاعة لتحقيق رغباتهن عندما يختلفن في الرأي مع الأزواج. بل إن (مل) يذهب إلى أن خلق الو لاءات السياسية عند المرأة يتيح لهن استخدامها في صالح المسار السياسي وبروح إنسانية مما يجعلهن ينظرن إلى جميع المشكلات على أنها مشكلات تخصهن بصفة شخصية [٧٥].

- إن إلغاء المساواة القانونية بين الزوجين له تأثيره السلبي على الأسرة كمؤسسة تربوية والتي هي المدرسة الوحيدة للمشاعر الأخلاقية الأصيلة ولذلك فالتعامل داخل الأسرة على أساس تفوق جنس له نتائج بالغة الضرر، فالادعاء اليومي بالتفوق يحط باستمرار من قيمة الزوجات وله نتائج بالغة الضرر على الأطفال فطالما أن هناك موجودين بشريين أحدهما مقتنع بقدراته وقيمه العظيمة وسيادته على الطرف الآخر فكيف نأمل في تقدم أخلاقي للمجتمع طالما أن جو المنزل الذي يتلقّى فيه جميع أعضائه التربية الأخلاقية المبكرة يقوم على أساس غير عادل في توزيع الحقوق والسلطات [٧٦].

و لعل كلام جون ستيوارت (مل) هو أنسب مدخل ننتقل به إلى دور الفكر الديني في توصيف مكانة المرأة !!!!

---

[٧٥] سوزان موللر، المرجع السابق ، ص ص ٢٥٢-٢٥٣.

[٧٦] سوزان موللر، المرجع السابق ، ص ٢٥٣.

الفصل السادس

الفكـــر الدينــي

و مـــكانــة المــرأة

يــؤثر الفكـر الـديني تـأثيرا أساسـيا وخطـيرا في الأخـذ بمنظومـة قـيم تناسـب المـتغيرات الجاريـة في المجتمـع، وخاصة ما يُنظر له نظرة شك باعتباره إدخال ما هـو غريب علـى صـحيح الـدين أو وافـد مـن الغـرب، مثـل مبادئ المـساواة وحريـة الفكـر وحقـوق الإنـسان وقـيم إعلاء شأن المـرأة والـدفاع عـن حقوقهـا و" تمكينهـا" فالـدين يمثـل مرجعية ومرتكزا رئيسيا وقويا تستند إليه التيارات المحافظة والأصـولية بـدرجاتها المتفاوتـة فتمنـع أو تمـنح أو تمـسك العصا من النصف با سـم المرجعيـة الدينيـة ـ وبالـذات فيما يخص القيم التي تمس قضية المرأة

١. وجهات نظر في الفكر الديني ومكانة المرأة

في هذا الفصل، سوف نعرض لتيارات الفكر الديني التي تدور في مجتمعنا العربي عامة وفي مصر خاصة، سواء ما يتعلق بالفكر الإسلامي أم المسيحي، أي أننا لن نتناول آراء المفكرين والمثقفين والكُتّاب خارج المجال الديني ، فهي تأتي فقط في معرض الحديث . فالقصد هو رصد حركة الفكر الديني من ناحية تأثيره على الرأي العام أو على الفرد العادي ، ذلك لأن للدين في مجتمعاتنا تأثيرا كبيرا و بالتالي فإن دور الفكر الديني يأتي في مكان متقدم- إن لم يكن في المقام الأول - في تأثيره على قيم الجماعة، فلا نجانب الواقع إذا قلنا إن بيد الفقهاء واللاهوتيين تحريك الأمور في المجتمع، بل إنهم هم الذين يرجع إليهم لتقييم وقبول حركة التيار الثقافي أو التنويري في المجتمع و بالتالي ما يترتب من إدخال قيم غير مألوفة أو جديدة بما لهؤلاء الفقهاء واللاهوتيين، وربما نضيف إليهم الدعاة الدينيين الجدد - سواء أصحاب فتاوٍ أو آراء أو شهرة وعظية ،و سواء من داخل البلاد أم خارجها، من مكانة لدى الرأي العام أو الفرد العادي والذي ما زال ينجذب بالأكثر نحو التيارات المحافظة وربما الأصولية و ما يُنسب إليها أو يُضاف إليها من هؤلاء، وذلك لسبب بسيط وهو أن التيارات التي تأخذ من حرفية النص سندا ومرجعية هي في الواقع تجد سندا قويا تستطيع به أن تؤثر في الأذهان بشدة

هناك ملاحظتان:

- أولاهما: حرصت في هذا الفصل أن أورد كلا من الآراء المحافظة والمنفتحة -سواء إسلامية أم مسيحية -كما دوّنها كاتبوها أو

كما تم اقتباسها في كتابات أشرت إليها، أما ي فسيرد منفصلا تماما ولن يتم إدخاله في النصوص المقتبسة.

- أما الملحوظة الثانية فهي أن أمثلة الكتابات الواردة ليست مقصودة لذات الكُتّاب بل هي أمثلة لتيارات سائدة في وسط الفكر الديني يمثلها هؤلاء الكُتّاب ، فكوستي بندلي مثلا يمثّل التيار المنفتح ويمكن أن ندرج كتابات عددا من الكُتّاب المسيحيين من طوائف مسيحية عديدة ، منها على سبيل المثال كتابات د.القس صموئيل حبيب ضمن هذا التيار وغيره كثيرون بالطبع .

- و نعرض لرأي كوستي بندلي والذي يصفه تقديم الكتاب بأنه رجل نسج حياته كلها بالإنجيل كلمة الله ، وهو أرثوذكسي من طرابلس ورائد من رواد" حركة الشبيبة الأرثوذكسية" وهو يمثل التيار الذي ينادي بحق المرأة في الحرية والمشاركة سواء في المجتمع أو الكنيسة دون وضع القيود التقليدية المستندة إلى حرفية النصوص الدينية وعنوان كتابه" المرأة في موقعها ومرتجاها ".

- أما كتاب الأب متى المسكين فهو أيضا مثال للتيار المحافظ وبنفس القياس يمكن أن ندرج تحته كتابات من طوائف مسيحية أخرى مثل آراء بعض القسوس الإنجيليين المصريين الواردة في كتاب " رسامة المرأة – هل تجوز؟"

أما الكتاب الثاني فهو كتاب" حقوق المرأة وواجباتها" للأب متى المسكين والذي يعرض وجهات نظر المحافظين بخصوص قضية المرأة سواء استنادا إلى نصوص كتابية أو تقليد كنسي ، وقد آثرنا أن نورد اقتباسات من كلا الكتابين بلا أي تغيير حتى نحتفظ بصحة الآراء المقتبسة كما نقتبس من

الكاتبة فريدة النقاش بعض وجهات النظر فيما يختص بدور الفكر الديني الإسلامي ورؤيته للمرأة كما جاء في كتابها "حدائق النساء- في نقد الأصولية"" وهي بدورها تنقل آراء بعض الفقهاء كما جاءت في كتاباتهم.

- وسيجد القراء بعضا من اتي بين حين وآخر عند عرض تلك الآراء.

ونبدأ بفريدة النقاش :

- أنكر بعض الفقهاء على المرأة حقوقا لم يمنعها عنها أي من القرآن أو السنة وهمشوا دورها في القرون اللاحقة لصدر الإسلام، وحين توسعت الدولة وزاد غناها في العصر العباسي تفاقمت ظاهرة الجواري والإماء، وتحولت المرأة إلى وسيلة لإشباع الرغبة الجنسية للرجل وللتوالد وانزوت في "الحريم" ، إلى أن بدأت النهضة العربية الحديثة في القرن التاسع عشر التي نادى قادتها من المفكرين والساسة بموقف جديد من المرأة يعمل على إنصافها بدءا بتعليمها لتربي أطفالها تربية طيبة وشارك كل من التيار الديني والتيار الليبرالي في هذه الدعوة وبقيا معاً في إطار المرجعية الإسلامية ، رغم اختلاف المنابع الفكرية التي جاءوا منها

- إلا أنه، و على العموم لم يتعرضوا لقضايا المرأة الأساسية كالمشاركة في حياة المجتمع ونشاطاته أو المساواة أو الولاية وتعدد الزوجات والطلاق، وإن كان الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية في نهاية القرن الماضي قد قيد تعدد الزوجات لدرجة التحريم تقريبا.

وفي متابعة لأعمال المفكرين العرب في كل من سوريا ومصر ولبنان وتونس في معالجتهم لقضية المرأة فإن السياق النهضوي التنويري يبدأ من رفاعة الطهطاوي إلى أحمد فارس الشدياق ومن خير الدين التونسي إلى محمد عبده وصولاً إلى "قاسم أمين" الذي ارتبطت الدعوة لتحرير المرأة بكتابيه عن"المرأة الجديدة" و"تحرير المرأة" في نهاية القرن التاسع عشر.

ونصل إلى المفكر العلماني الديمقراطي "سلامة موسى" الذي طالب بمساواة المرأة في الإرث متجاوزاً المحاذير والكوابح التي كان مفكرو النهضة من الإسلاميين والليبراليين قد وضعوها في صلب دعوتهم لتحرير المرأة.

- و تتساءل النقاش قائلة:" كيف يمكن أن تتناقض خصوصية حركات تحرير المرأة العربية مع مواثيق حقوق الإنسان إلا إذا كانت هذه الخصوصية تهدر مبدأ المساواة باسم الدين؟ وسوف تصبح الخصوصية في هذه الحالة هي تعدد الزوجات، وفرض الحجاب والنقاب على المرأة باعتبارها عورة وحجب حق الأم المصرية في إعطاء جنسيتها لأطفالها من أجنبي لأن "دم" الأب هو الأساس وليس دم الأم.

وترد النقاش على الاحتجاج بما يسمي بالخصوصية أو القومية بأن قاسم أمين على سبيل المثال لم يستورد أفكاره من الغرب ، بل حرص دائماً على الرجوع إلى الدين. ومع ذلك تعرض لحملة ضارية من المحافظين والتقليديين الذين لم يستمدوا قوتهم من الأفكار أو الخصوصية بل من حقيقة التخلف الاقتصادي – الاجتماعي الذي أدي إلى إخفاق عملية التحديث .

وتقول النقاش:

- حين نبحث عن حقوق المرأة نجد أنفسنا أمام مجموعة من الاجتهادات تأسست جميعاً على مدارس متباينة في الفقه بمذاهبه الخمسة المالكي والحنبلي والحنفي والشافعي والجعفري ولم تبق إلا مساحة محدودة ومعزولة للاجتهادات الأخرى من خارجه لأنها تعد في هذه الحالة منافية للدستور بحكم المادة المشار إليها ، أو هكذا يسارع الشيوخ إلى القول .

ففي هذا الميدان تحديداً أي ميدان – حقوق المرأة – لا يمكن الاعتداد بالدستور باعتباره سنداً للقانون أي لمبدئي العدل والمساواة بصورة أساسية.

☐ والسؤال الآن : كيف أدت الإحالة الدائمة إلى الفقهي تجنُّباً للقانون في قضايا حقوق المرأة إلى مزيد من إهدار هذه الحقوق على دراسة الوضع المصري .

فإحالة هذا الحق المدني الذي يترتب على إعمال مبدأ المساواة ليس إحالة إلى الفقهي وإنما إلى المجتمع البطريركي الراسخ الجذور ، والذي ترسَّخ عبر الزمن بعد سقوط المجتمع الأمومي الذي جرَّد المرأة من حقوق كثيرة كانت تتمتع بها ، حيث كان مبدأ المساواة في ذلك الزمن القديم سائداً بطريقة فطرية.

وكما يقول الشيخ محمد الغزالي : "المأساة أننا نحن المسلمين مولعون بضم تقاليدنا وآرائنا إلى عقائد الإسلام وشرائعه لتكوّن ديناً مع الدين"

● وإذا تأملنا بعض الأمثلة مثل شرط موافقة الزوج على سفر المرأة فنجد أن المنع من السفر إلا بأذن رجل وأحياناً على موافقة الشرطة الآداب، و تأسس على النظرة لجسد المرأة باعتباره عورة وخطراً كبيراً على الشرف ، لذلك ينبغي أن يظل هذا الجسد موضوعاً تحت الرقابة فهناك فزع ذكوري غامض من أن يكون غياب المرأة عن المراقبة فرصة لها للعبث بشرف الأسرة القبيلة.

كما تسجل الباحثتان د. فيفيان فؤاد ونادية رفعت في بحث سبقت الإشارة إليه عن المرأة في الخطاب الديني المعاصر (الإسلامي والمسيحي) نموذجا من كتابات الشيخ محمد الغزالي يقول[٧٧] :

---

[٧٧] النقاش، المرجع السابق، ص . ٨٣.

"هيكل الرجل قد بني ليخرج إلى ميدان العمل كادحاً مكافحاً، أمـا المـرأة فلها وظيفة عظمي هي الحمل والولادة وتربية الأطفـال وتهيئـة عـش الزوجية ليسكن إليها الرجل بعد الكدح والشقاء... ولاشك أنهن الخلائـق الضرورية للحضانة وتعهد الأطفال الأمر الذي جعل المرأة سريعة الانقياد للحس والاستجابة للعاطفة، ويصعب عليها ما يسهل علـي الرجـل مـن تحكيم العقل وتقليب الرأي وصلابة العزيمة " .

- ويمكننا أن نجد مادة هائلة مشابهة في الكتابات الغزيرة للشيخ متـولي الشعراوي.
- ويستند الخطاب القبطي أيضاً إلى نظرية التفاوت الفطري بـين الرجـل والمرأة لتبرير الأدوار التي يجب أن يلتزم بها كل منهما فـي الجماعـة الدينية والأسرة الدينية والمجتمع.

و تواصل النقاش كلامها مستشهدةً بالأب متـي المـسكين : "لكـن هـذا التساوي الكامل والمطلق بين الرجل والمرأة في روحيات الإنسان الجديـد ومواهبه الروحية وحقوقه في المسيح ، لا تلغي التمايز الخلقـي للجـسد والفارق التكويني في وظائف الأعضاء والصفات والمميزات الخاصة بكل من الرجل والمرأة إلى الدرجة التي تبيح للمرأة مزاولة كل حقوق الرجل في ممارسة الحياة الروحية ، لاسيما داخل الكنيسة أو في وسط الجماعـة فأنوثة المرأة مهما اصطبغت بالروح إلا أن بقاءها داخل الجسد يحـددها في السلوك والحرية ..(تفصيل أكثر يرد في عرض كتاب "المرأة حقوقها وواجباتها"للأب متى المسكين)

- ثم تكمل النقاش: "ويتواصل هذا التناقض في الخطاب الديني الإسلامي والمسيحي بين الإقرار بمبدأ المساواة أمام الله من جهـة وإهـدار هـذه المساواة في الدين باسم طبيعة المرأة من جهة أخري ، وذلك بالرغم مـن إقرارهما معاً أنه لا يجوز أن يدخل الدين مع العلم في عراك، ومعرفتهما بأن نتائج العلم الاجتماعي قد أثبتت أن الاختلافات البيولوجية بين الرجـل

والمرأة لا ترتب أي فروق في القدرات الذهنيـة أي إمكانيـة اكتـساب المهارات والمعارف في كل الميادين، وممارسة كل أنـواع العمـل دون استثناء، شرط أن يلعب المجتمع دوره في مساندة المـرأة حتـى تـؤدي وظائف الأمومة والعمل في آن واحد ، ليس بإنشاء دور الحضانة ورياض الأطفال على نطاق واسع .... وإنما أيضاً بتغيير أسس التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة لتصبح رعاية الأطفال وإدارة شئون الأسرة عملا مـشتركا يقوم به الزوجان على قدم المساواة ولا يقل دور المؤسسة الدينية أثرا في التكوين الذهني والروحي للناس رجالا ونساء عن دور المؤسسة التربوية وربما يزيد في بعض الحالات ، بل إن أحد الأسـباب لتجـذُر الأفكـار المتناقضة والمعادية للمرأة في الوجدان الشعبي وفي العـادات والتقاليـد تعود في الأساس إلى انغلاق هذه المؤسسات الدينية دون ريـاح التجديـد والإصلاح التي يمكن أن تفضي إلي مراجعة الموقف من المرأة وتطويره.

- هناك عامل يضيف قيودا جديدة على المرأة أفرزته سـنوات الانفتـاح والهجرة الواسعة للمهنيين والحرفيين والعمال المصريين إلى دول الخليج للعمل بعد الوفرة النفطية، وهؤلاء إما اصطحبوا أسرهم فعـادت النـساء محجبات ومنقبات وعاد الرجال بالجلابيب والـذقون ، وفقـدت الأسـرة المصرية من الطبقة الوسطى بشكل خاص طابعها العصري الـذي بنتـه عبر قرن من الزمان أو يزيد.
- وتأثر المجتمع المصري كله الذي كان قد دخل في مرحلة تحول من نظام الحزب الواحد إلى التعددية المقيدة ، ومن التخطيط الاقتـصادي والملكية العامة لوسائل الإنتاج إلى اقتصاد السوق والملكية الخاصة ، ولما كان القطاع العام هو أكبر موظِّف للنساء فقد أدي تفككه التـدريجي إلـى زيادة معدلات سفر النساء أنفسهن إلى الخليج بحثاً عن عمل . وفي الخليج وخاصة في المملكة العربية السعودية الأغنى والأكبـر تلعـب التيـارات

السلفية التقليدية المتزمّتة في موقفها من المرأة دوراً مركزيا حيث كان المفتي الشيخ "بن باز" يواصل إصدار فتاوى المعادية لعمل النساء – والذي اعتبره نوعاً من الزنا– بل والفتاوى المعادية حتى لتعليمهن، حيث انتشرت جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتلاحق النساء اللاتي بادرن بقيادة السيارات وتدفع بهن إلى السجون وأقسام الشرطة .

- وقد راكم التيار الإسلامي بكل فرقه أدبيات هائلة حول موضوع المرأة رفضت كلها فكرة تاريخية النصوص الدينية بعامة والمتعلقة منها بالمرأة بخاصة، وبالتالي وُضعت المرأة في مرتبة أدني وُشطبت عملياً على مبدأ المساواة وأصبحت القوامة والطاعة والحجاب والنقاب وضرب النساء وحجب الولاية الكبرى واشتراط الزواج بولي والشهادة والميراث هي المبادئ الأساسية التي تهدر مبدأ المساواة الروحي والأخلاقي الذي تتضمنه النصوص الدينية . وبقي اتجاه التنوير والإصلاح داخل التيار الإسلامي دائماً اتجاه أقلية مكونة من أفراد شجعان غالباً ما يتعرضون للعقاب حين يفرض التيار الرئيسي سطوته.
- ولا يختلف الأمر كثيراً في حالة المسيحية.

المـرأة فـي المسيحيـة

وصايا للعروسين

ما زال العروسان في حفل الإكليل يتلقيان وصايا لضمان نجاح الحيـاة الزوجية ، وتعتمد تلك الوصايا على مفهوم الكنيسة عن الزواج باعتباره ضمانا لاستمرارية التناسل وتبادل المنافع والخدمات بين الزوج والزوجة والتي يتوقف نجاحها على طاعة الزوجة كشرط لتوسـيع رزق الـزوج وعناية الزوج بزوجته في سياق يفترض أنها ربة منزل تفرغت لـه فـي المقام الأول، فهو المسئول عنها بعد والديها مع أن الواقع قد يشهد العكس أحيانا كثيرة. بعد أن تساوت خبرات كلا من الجنسين نتيجة لخروج البنت للتعليم وتعرضها لمختلف الخبرات التي قد تتجاوب معها أكثر من الشاب مما يوفر لها الظروف التي تنضج شخصيتها، بل قد تسبقه في كثير مـن الأحيان!!! أفهم أن جدي وجدتي كان يناسبهما محتوى تلك الوصايا، لكني أشك أنها كانت تناسب أبي وأمي !!! فكيف بحال الشباب اليـوم؟ كيـف لطاعة العروس أن توسّع في رزق العريس ؟وكيف نفترض أن العروس ربة منزل أو سيدة عاملة لكنها تعود من عملها قبل زوجها لكـي تـستعد لمقابلته الاستقبال الحسن ؟ وماذا لو كانت مواعيد عملها لا تسمح بـذلك كأن يعود هو قبلها أو كانت تعمل في وظيفة تتطلب منها العمـل بنظـام الورديات؟ و ماذا لو مرض هو وصارت هي العائل و المـسئولة عنـه بعد.....أما عن العهود التي يتضمنها حفل الإكليل (في الكنائس الإنجيلية) فأتساءل كيف نقطع على العروسين عهودا أشك في أنهمـا يـستوعبان

معناها و أبعادها، فكيف لشابين لم يهتم أحد في غالب الأحيان سواء الأهل أو الرعاة في الكنائس أن يخصص لهما وقتا يشرحان فيه ماذا تعني تلـــك العهود؟ وما هي ظروف السراء والضراء والـــصحة والمـــرض اللـــذان يلتزمان بأن يكونا أوفياء لبعضهما خلالها؟ خذ مثلا الابتسامة العريــضة (جدا) التي ترتسم على وجه العروس والعريس وهما يجيبـــان (بـــنعم) عندما يتقدم الراعي لسؤال كليهما هل تتعهد أن تلتزم بشريك حياتك فـــي الصحة والمرض، في السراء والضراء، هذه الابتسامة تجعلني أتخيل ما يدور في عقل العروسين في تلك اللحظة : تتصور العروس أنها في حال مرضها سوف يتفرّغ زوجها للعناية بها وحدها ، ويتخيل العريس أن من سوف تدعوه سيدها سوف تكون تحت قدميه في أي لحظة (يـــستدعيها) وإلا ما كانا قد ابتسما هذه الابتسامة العريضة فالواقع أن سياق الحديث لا يدعو أبدا للابتسام!!!

كل هذه الوصايا والعهود تدور في مجال شكل العلاقة بين الرجل والمـــرأة كما كانت قائمة منذ مئات بل الآف السنين والنتيجة معروفة للجميع !!!

• على كلٍ، هناك كتابات تناولت قضية مكانة المرأة مـــن وجهـــة نظـــر مسيحية ، وتعددت الرؤى وتباينت ، إلا أن ما انتهى إليه كل منهم هو الذي يحتاج إلى النظر فيه لنرى كيف يمكن أن تتضارب الآراء والنتائج مـــع أن المصدر واحد والمرجعية واحدة ، ومشكلة الاختلاف هنـــا عنـــدما تُبنـــى الآراء على أساس الالتجاء إلى حرفية النص و الاقتصار على الاستناد إلى سرد آيات تتعلق بموضوع المرأة، أو ربما إضافة بعض المواقـــف التـــي وردت في الكتاب المقدس ، وهذا ليس كافيا للنظر في قضية مكانة المـــرأة في المسيحية، فما يجب الاهتمام به هو الالتفات للسياق الذي ورد فيه النص الكتابي نفسه والكتابات التي تأخذ منه مرجعية لها فهناك جوانب عديدة فـــي

أي موضوع يجب مراعاتها عند البحث فيه ودراسته لتكون الدراسة متكاملة وليست انتقائية.

● كما لا يسهل إهمال التوجهات الفكرية واللاهوتية للفترة الزمنية التي تعود إليها تلك الكتابات المرجعية ، و فيما إذا كان المجتمع نفسه يتمتع بنوع من الانفتاح والاستقرار أو غير ذلك ،وماذا عن خبرة الكُتّاب الشخصية ؟ ورؤيتهم للمرأة من خلال النشأة، عائلته، والعلاقة بالمرأة كأم ولأخت وزوجة وزميلة ..الخ ؟؟

● والواقع أن إضافة شيء جديد لموضوع المسيحية والمرأة ليس هو الهدف من هذا الكتاب وذلك لعدة أسباب:

– فلست أهدف إلى مواقف دفاعية جدلية أبرز فيها اتخاذ المسيحية جانب المرأة وما يتردد في بعض الكتابات من أن المسيحية هي الدين الوحيد الذي أنصفها وأعطاها مكانة متميزة، فكثيرا ما كان التميز هذا هو عين ما يحتاج إلى تغيير إذا تناولناه من منظور يختلف عما يدين به المجتمع الأبوي .

–كما لا أستريح للكلام عن المرأة والمرأة فقط باعتبار أنها صاحبة قضية تحتاج لمن يتبنّاها والدفاع عنها وهنا فمن بداية كلامنا أخذت القضية عندي وجهة مجتمعية بمعنى أنها ليست قضية فئوية (امرأة– رجل–) (امرأة – امرأة) فلا أميل إلى معالجة فرعيات وإنما أفضل أن القي الضوء على الحالة المجتمعية ككل ، فإذا ما أخذنا بالنظرة الكلية فإننا سنكتشف أن الرجل أيضا والطفل والعلاقات الاجتماعية بجملتها لا تخرج عن أن تكون جزءا لنفس القضية

١. المرأة في موقعها و مرتجاها

بقلم كوستي بندلي

يتساءل الكاتب عن سبب استضعاف المجتمعات للفتاة فيضع بعض الأسباب كالتالي:

١. **لأن المرأة أضعف عضلياً من الرجل**:فقد كانت القوة العضلية في ما مضى أساس العمل المنتج وأساس الدفاع عن النفس وعن الجماعة ومن هنا استضعف الرجال النساء، لكن الظروف تغيرت وبقيت الصورة القديمة

٢. **المرأة أقل عدوانية من الرجل** : خاصة من حيث الفعل الجسدي العدواني وهذا يعود إلى أسباب فسيولوجية منها تفوّق الرجل من حيث النمو العضلي وأيضا فعل الهرمونات الذكورية التي إذا أُعطيت لدجاجة مثلاً زادت عدوانيتها بشكل ملحوظ، فكان لا بد أن تستضعف المرأة في مجتمع لا يزال فيه العدوان يسود العلاقات الاجتماعية

٣. **الخوف الخفي من المرأة**: و هي صورة معكوسة لما يعتري الرجل حيالها من شعور مبهم بالضعف فهو بالفعل يُسقط على المرأة صورة احتياجه الشديد إليها على الصعيدين الجنسي و العاطفي وعلى صعيد رغبته في تخليد اسمه.

٤. **النزعة إلى تأكيد الذات على حساب الآخر**:

ومن أسباب استضعاف الرجل للمرأة أن المرء ينزع تلقائياً إلى تأكيد قوته على أساس استضعاف سواه. وكأنه لا يتأكد من اقتداره إلا إذا كان إلى جانبه كائن أضعف بوسعه أن يستقوي عليه. ومن هنا هذه النزعة شائعة في تاريخ البشر حتى الآن، حيث تأكيد الناس لقدرتهم، أفراداً وجماعات، بالتسلط على سواهم، سواء كان هؤلاء من عمر آخر(تسلّط الكبار على

الصغار) أو من جنس آخر (تسلط الرجال على النساء)، أو من طبقة أخري (تسلُّط المستغلين، وتسلط الأغنياء على الفقراء)، أو من شـــعب لآخـــر (تسلط المستعمرين على الشعوب المستعمرة) أو من لون آخر (تسلُّط البيض على السود). هؤلاء كلهم ليسوا ضعفاء بطبيعتهم ولو صُوروا هكــذا ولــو تصوروه بالنتيجة هم أنفسهم ، وإنما (يُستضعفون) أي يُحكم عليهم بموقـــع الضعف لإخضاعهم لسيادة المتسلطين ولتبرير هذه السيادة .

٥.قبول المرأة بدور المستضعفة :

ولابد من الإشارة إلى أن مما يرسخ الرجل في استضعافه للمـــرأة، دخـــول المرأة في لعبته وقبولها بالدور الذي يرسمه لها. ذلك أن المرأة تجد بعـــض الفائدة لها في الاستجابة لتلك الصورة الدونية عنها التي يرسمها الرجل فهي من جهة تنال من جرّاء ذلك حماية منه توفر عليها مشقة النـــضال وخطـــر المسئولية. فهناك من يجاهد عنها وهناك من يجنبها مجازفة اتخـــاذ القـــرار وعبء تحمل المسئولية ، ومن جهة أخري فإنها بتظاهرها بالضعف تهـــدئ مخاوف الرجل وتوهمه بتفوقه عليها وهكذا تجرّده من ســـلاحه وتـــستطيع بالتالي أن تنال منه ما تشاء. هكذا يجد الرجل في ســـلوك المـــرأة مبـــررا لاعتقاده بأنها ضعيفة، ويخفي عليه أنها لا تبدو ضعيفة إلا لأنه شاء ذلك أو لأنه اضطرها إلى التظاهر بذلك.

٦.انسحاب المرأة

ومن أشكال استجابة المرأة للدور الدوني الذي رسمه لها الرجـــل ودعمهـــا بالتالي استضعافه لها أنها كثيراً ما تنسحب من كبريـــات الأمـــور (الفكـــر والثقافة والعلم، والتزام القضايا الوطنية والاجتماعية والسياسية ...) التـــي يرغب الرجل بإبعادها عنها ليستأثر بها لنفسه، فتنصرف إلى الصغائر (الزينة والأزياء، وقتل الوقت بالثرثرة والاغتياب....) مما يؤكد للرجـــل بأنها فعلا ضعيفة وتافهة لا رغبة لها ولا قدرة علـــى الاضـــطلاع بجليـــل

الأمور، دور مسبق وفقاً لهواه، في إقصائها عن هذه الاهتمامـــات الكبــرى وتحولها إلى الصغائر.

ثم يتساءل الكاتب عن كيف السبيل إلى إعادة الاعتبار للمرأة فيقول إن معالم استضعافها هي نفسها معالم الطريق لتجاوز وهم استضعافها، ومـــن هــذه المعالم [٧٨].

١. **العمل على بناء مجتمع أقل عدوانية:** حيث تسود علاقـــات العــدل والمساواة و القانون وتحل فيها المشاكل بلا عنف

٢. **أن يراجع الرجل نظرته إلى المرأة:** ولو كلفه الأمر قلقا و مشقة فعليه أن يتعلم ألا يراها من زاوية حاجته إليها فحسب بل من حيث هي إنسان مثله وله أهمية بحد ذاته وليس فقط حيث تضاف إلى الرجل وهنـــا يكــف عــن التحكم فيها بهدف ضمان إشباع حاجته إليها.

٣. **أن يدرك الرجل أنه يستقوي بقوة على المرأة :** فقوة الرجل لا تأتيه من استضعاف المرأة لأنه إذا ما استضعفها فإنه يضعف نفسه

٤. **النضال من أجل تحرير الفئات المقهورة:** وإنصاف المرأة يمــر أيضا بخوض المجتمع نضالا من أجل تحرير الفئات المقهورة، فـــلا يعــود الرجال في هذه الفئات مضطرين إلى أن يقهروا غيرهم من النساء والأطفال لكي يعوضوا عما لحقهم من قهر.

٥. **تمرد المرأة على الدور المرسوم لها :** على المرأة أن تـــدرك أن الدور المرسوم لها هو مجحف بحقها يبخس إنسانيتها وهو وليد توزيع جائر للأدوار بين الجنسين يفرضه الرجال وفقا لأهوائهم ، وهو ليس من " طبيعة الأشياء" كما يوهمونها وأن الفوائد الظاهرية التي تجتنيها هي إنمـــا علـــى حساب كرامتها وسعادتها

---

[٧٨] كوستي بندلي، المرأة موقعها ومرتجاها، (القاهرة: دار العالم العربي للطباعة، ١٩٩٤) ص ص ٢٥- ٢٨.

● و عن الاعتراف الصوري بحقوق المرأة الذي لا يرقى إلى المستوى الذي يجب أن يكون عليه يقول الكاتب "رغم كون النساء يملكن حق، التصويت وحق الدراسة وحق ممارسة مهنة، فإن أفكارنا عنهن وعن طاقاتهن لا تزال بعيدة عن بلوغ مستوي النضج النفسي. ذلك أن هذه الأفكار لا تزال مشوهة من عدة وجوه من حيث الحدود المؤسفة التي تفرضها على النساء والتي تحول دون ممارستهن للقسط الأكبر من قدراتهن".

"و تصويرا لما يفعله الرجال مع المرأة من تجريدها من عمقها الإنساني يستشهد الكاتب بما أوردته المحللة النفسية كريستيان اوليفية فتقول"

" كانوا (أي الرجال) يصفّرون لي ، ويدنون مني، ويشرحونني بالنظر، بشكل يفقد معه المرء الجرأة على الخروج إلى الشارع" أتدرون أن نساء عديدات لم يعدن يجرؤن على مواجهة الشارع لأنهن لا يشعرون فيه أنهن كائنات بشرية بل أشياء معروضة (.....) كنت أعرف إنني أجتذب الرجال بما كان الأقل أهمية في شخصي، كنت أتمني لو أن أحداً بدأ بلغة غير لغة الخارج. كنت أتمني لو أن أحد سألني: من أنت؟ بماذا أنت تفكرين؟ كيف تعيشين؟ عما تفتشين؟" (كنت أتمني) لو بدأ أحد بأمر إنساني يتعلق بي وليس بهذا الجسد الشقي الذي كان يبدو لي دائماً حائلاً بين الآخر وبيني(....) [٧٩]

●كما تقول العالمة الطبيعية والباحثة الاجتماعية أوديت تيبو

" إن اختزال المرأة في دور موضوع جنسي يدفعها إلى أخذ ثأرها بالأسلحة الوحيدة التي تركت لها، ألا وهي مفاتنها. أما حصرها في البيت، فهو يعرضها إلى إقامة سيطرتها فيه، فتملك باستبداد في المجال الذي رسم لها أن لا تتعداه، وتصبح زوجة وأما طاغية." [٨٠]

---

[٧٩] كوستي بندلي، المرأة موقعها ومرتجاها، المرجع السابق، ص ٤٨.

[٨٠] كوستي بندلي، المرأة موقعها ومرتجاها، المرجع السابق، ص ٤٩.

تعليق : إن دفع المرأة إلى تسليح نفسها بأسلحة تحامي بها عن نفسها ضـــد التحكم و السيطرة ينعكس ليس فقط في تعاملها كزوجة و أم ولكنـــه يلقـــي بظلاله على شخصية الجيل الذي تقوم على تربيته بمعنى أن الطفل (بنت أو ولد) في كنف الأم أغلب مراحل عمره الأولى على الأقل ، بينما قد يغيـــب الأب عن مجال التربية إما لا نشغاله في العمل الذي هو ليس فقط مـــصدر دخل بل هو أيضا تحقيق الذات ، أو لعدم انتباهه لدوره في التربيـــة أو لأي سبب آخر ،وحتى لو كان متواجدا فهو نفسه يحمل سمات التربية الأنثويـــة المتسلطة أو المتحايلة أو التي تستعمل الحيلة أو الدهاء كوسائل دفاعية وهو ما عبر عنه جون ستيوارت ميل أدق تعبير (راجع الفصل الخامس)
و هو أيضا ما يعبِّر عنه بالتعبير الدارج " ابن امه" فإذا كان هذا هو الأمـــر الواقع بالفعل فإن الأبناء هم في أغلب الحالات و في أغلب العائلات هم أبناء وبنات أمهم
ألهذا قال الشاعر أحمد شوقي

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

لكن يظل السؤال : كيف نعد الأم ؟ هل لمجرد أن نحصل علـــى " أم" أم أن الموضوع أبعد من هذا بكثير إذ يحتاج أن ننظر للأم كشخص يجب أن ينمو نموا سويا كشخص أولا لنفسه و للأبناء و للمجتمع ككل؟ ويواصل بنـــدلي قائلا:

ماذا يقول الإنجيل ؟[81]

ارتباط هذا الانتقاص بالوضع الإنساني الساقط

يلاحظ الإنجيل موقف السطوة الذي يقفه الرجال من النساء والذي يستند في الظاهر إلى كلمة الله ،وهناك أمثلة:

---

[81]كوستي بندلي، المرأة موقعها ومرتجاها، المرجع السابق، ص ٦٢.

• (مت ١٩: ٣-١٠) عن تطليق النساء متى شاءوا وهو الموقف الذي يبرر الاغتصاب في آخر المطاف ملقيا المسئولية على المرأة و معطيا للرجال مبررا لرغبته في إذلالها

🕮 هذا الوضع الدوني للمرأة يستند في الظاهر إلى الكلمة الإلهية. فعلي سبيل ملاحظة الواقع المؤسف الحاصل: وليس أمراً من الله. (تك ٣: ١٦)" إلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك " وهي قاعدة أبطلها الإنجيل حيث أنها حصيلة الوضع البشري الساقط لا إرادة إلهية بإذلال المرأة وتبخيسها. واعتبرها نتيجة لما أفرزه هذا الوضع من " قساوة القلب" (متى ١٩ : ٨) وقد فتح الإنجيل صفحة جديدة تتحقق بها مقاصد الله التي كانت في البدء (متى ١٩: ٨) بهذه الجدة التي أطلقها المسيح في الأرض بكلمته وأعطى البشرية القدرة على تحقيقها بقيامته صارت قاعدة العلاقة بين الرجل والمرأة هي المحبة (أفسس ٥: ٢٥) و (١ كو ١١: ١١)

🕮 إن التصميم الإلهي الأصيل دائما في الخلفية و يتراءى في أقوال الأنبياء إذا ما اتخذوا من علاقة الرجل و المرأة صورة لعلاقة الله بشعبه حيث يرد نص "هوشع ٢: ١٦" هكذا (أنت تدعيني رجلي ولا تدعيني بعلي) علماً بأن كلمة "بعل" تعني التسلط في حين أن كلمة " رجلي" تفيد التوافق.

• أما كتاب " نشيد الأنشاد " وهو نشيد حب بشري اتخذ صورة لعلاقة الحب بين الله وشعبه، فإنه يصور ارتباطا متبادلاً بين رجلاً وامرأة متحابين، لا تسلُّط بينهما ولا سيادة. هذا التوافق الذي يجعل الطرفين على قدم المساواة فيما بينهما يتجلي مثلاً في تسمية الحبيب لحبيبته "أختاً".
(أختي ، عروستي .....)" نشيد ٤: ١٢"(وعبارة "أخت" توحي بالمساواة ، كما يتضح من العبارة التي يستخدمها الرجال إذا ماشاؤوا أن "يرفعوا"

امرأة إلى مستواهم ، فيقولون عنها إنها "أخت الرجال" . كما أنه يتجلي في مخالفة النموذج العلائقي المقترن بـ"السقوط" : ففي هذا النموذج تنقاد أشواق المرأة إلى الرجل من طرف واحد ، أما نشيد الأنشاد فلكل من الحبيبين شوق يشده إلى الآخر: "أنا لحبيبي وإليّ اشتياقه" (نشيد٧: ١٠) [٨٢]

- هذا النموذج الإلهي، الذي يتراءي لنا في أقوال الأنبياء مصححاً للعلاقة بين الرجل والمرأة ، معيداً إياها إلى ما كان ينبغي أن تكون عليه، هذا النموذج كان من شأنه أن يصبح فاعلاً في الإنسان الراهن إذا ما ترممت في ذلك الإنسان الصورة الإلهية التي سقطت وتشوهت، وقد تم هذا الترميم بفعل التجسد وتحقق أولاً في شخص يسوع ، رائد الإنسان الجديد ونموذجه. هذا ما يكشفه لنا الإنجيل.

- و عندما قُدّمت المرأة التي أُمسكت في زنى إلى المسيح و طُلب منه إدانتها فإنه لم يرفع المسئولية عن المرأة لكنه في نفس الوقت طرح المشكلة من زاوية شملها تعتيم مقصود ممن كانوا يشتكون على المرأة

- : فهل كان فيما بينهم من تورط معها يوما أو مع غيرها في ذات الفعل؟ والآن يقف ليشتكي عليها !! هل عندما قال المسيح "من منكم بلا خطية فليرمها بحجر" كان يضغط على مكمن الداء ؟! ولذا غفر لها المسيح إذ لم يكن هناك مجال لمحاكمة عادلة تمس الطرف الآخر؟! لذا صمت المسيح وانحنى على الأرض يرسم خطوطا

- و في رأي بندلي أن يسوع ترك للرجال الغيورين في الظاهر فرصة لمراجعة أنفسهم و التساؤل عما إذا كانوا لا يتسترون عن رؤية ما يعتمل

---

[٨٢] كوستي بندلي، المرأة موقعها ومرتجاها، المرجع السابق، ص ٥٩ص-٦١.

في أنفسهم من شهوة خفية أثارتها فعلة المرأة فراحوا يعاقبون في شخصها ما لا يجرؤون على مواجهته . .. متناسين أيضا ما يتحملونه من مسئولية كبرى في إحلال النظام السلطوي الجائر الذي قد يكون قد دفع المرأة إلى الخيانة الزوجية نتيجة زواج لم تُستشر فيه ولم تراع حين عقده ميولها ورغباتها ومتغافلين عن إطلاقهم لشريكها في ذات الفعل باعتباره رجلا

❑ في البيئة اليهودية التي عاش فيها المسيح، كان للمرأة وضع دوني فرض عليها في مجتمع ساده الرجال على كل الأصعدة. وكان هذا يستند إلى نصوص الشريعة ، التي وإن وفّرت للمرأة قسطاً من الحماية (راجع تثنية الإشتراع ٢١، ٢٢) إلا أنها اعتبرتها دون الرجل كرامة ومقاماً .

و من مظاهر التعصب اليهودي ضد المرأة يذكر الكاتب بعض الأمثلة

🕮 حرمان المرأة من الميراث .

من حيث شريعة الميراث لم يكن للفتاه أن ترث أباها إلا إذا لم يكن له ابن يرثه

🕮 سيادة الرجل وقصور المرأة

هذا وكانت المرأة تري في زوجها سيداً لها (هذا هو معني عبارة "البعل"

🕮 عدم التساوي في حق الطلاق

وكان من حق الرجل أن يطلق امرأته، شرط أن يعطيها كتاب الطلاق (تثنية ٢٤: ١، ٣)

🕮 انتقاص المرأة على الصعيد الديني .

لا بل كانت المرأة منتقصة الكرامة والحقوق حتى على الصعيد الديني كان على كل يهودي أن يقوم بالصلاة يومياً في كل صباح قبل القيام بأي أعمل، وكذلك في المساء. وكان يستثني من هذه الفريضة النساء والعبيد. وفي

الأعياد كان الرجال وحدهم يذهبون إلى بيت الله، أما النساء فلا (تثنية ١٦: ١٦)

- **مكانة المرأة في تعليم يسوع وسلوكه**[٨٣].

- لقد أعاد يسوع للمرأة اعتبارها وحررها من نير الدونية والانتقاص .
عمله المحرر هذا تجلي إن على صعيد تعليمه أو على صعيد سلوكه

في تعليمه :

- لم يعلّم يسوع مباشرة عن المرأة وطبيعتها ومكانتها وعلاقتها بالرجل إنما نستطيع أن نستشف موقفه منها بوضوح من خلال تعليمه عن الطلاق وتعليمه عن الشهوة

-**تعليمه عن الطلاق** (متى١٩: ٣-٩، مرقس ١٠: ١-١٢) لقد سئل يسوع إن كان "يحل لأحد أن يطلق إمرأته لأية علة كانت" (متى٣:١٩) وكان الفريسيون الذين طرحوا السؤال ينتظرون منه فتوى شرعية بهذا الصدد(فسؤال الفريسيين للمسيح كان طلب فتوى عن الطلاق أو بمعنى آخر كيفية الاستغناء عن المرأة في فكر المسيح) لكنه فاجأهم بأنه يرى أن الرجل و المرأة كيان واحد وهو كلام غريب عن اليهود وثقافة المجتمع آنذاك بوجه عام

- **تعليمه عن الشهوة:**

أعاد يسوع طرح الموضوع من منظار جديد بالكلية ، لقد كانت المرأة اليهودية تعتبر كما رأينا من فصيلة الأشياء. كانت بالطبع شيئاً مميزاً يستحق رعاية خاصة، ولكنها كانت شيئاً على كل حال. وكما أن المرء يتخلي عن شيء ما إذا ما تعب منه أو تضايق أو إذا قضي منه وطره أو

---

[٨٣] كوستي بندلي، المرأة موقعها ومرتجاها، المرجع السابق، صص ٦٣-٧٤.

أخذ يتطلع إلى ما هو أفضل منه، وهكذا كان يعتبر من الطبيعي أن يطلّق إمراته كما يخلع ثوباً ليستبدل به ثوباً جديداً قد يكون أبهى في نظره .
الآن صار واضحاً أن انفصال الزوجة عن زوجها إنما هو تمزيق لكيانه الذاتي الذي التحمت به تلك المرأة في الصميم . وهكذا برزت المرأة ، عبر هذا التعليم ، لا ملكاً للرجل يستغني عنه إذا أراد، بل شريكة قريبة منه قربه من ذاته ، لا بل "ذاته الأخرى " ALTER EGO

- اعتبار المرأة مصدراً للإثم والخطيئة لأنها توحي بالجنس وترتبط به، وكأنها نجسه لا ينبغي للرجل أن ينظر إليها أو يتعامل معها إلا بحذر شديد لئلا يتنجس بدوره، هذا التأويل هو أبعد ما يكون عن فكر يسوع الذي لا نرى عنده أثراً لهذا التركيز المهووس على الخطيئة الجنسية الذي تسرب فيما بعد ، بفعل الظروف التاريخية والتيارات الفكرية والعُقد البشرية إلى الذهنية المسيحية فأفسدها. كلا. إنما قصد يسوع أن يبين فداحة النظرة المنحرفة إلى المرأة لأن النظرة (أو "الرؤية" بشكل أعم) إنما هي أساس السلوك كله.
- هنا أيضا يتجاوز يسوع النظرة الشرعية لينفذ إلى الجذور ويطرح القضية في الصميم. الشريعة تقول "لا تزن" وقد كان يفهم منها أنه ينبغي للرجل أن يكتفي بالزوجة التي "يملكها" وأن لا يتعدي على "ملك" سواه. وكأن القضية قضية امتلاك يعتبر مشروعاً في بعض الحالات – وهي التي يقرها الشرع .
- فالزواج إذا عيش على حقيقته، يعطي الشهوة دورها... ومكانها ، ولكنه يروّضها بأن يهذّبها ، يصقلها ، يكسبها بالحب مدلولاً جديداً يحولها عن استيلائيتها كما يتحول الحجر إذا صار تمثالاً والصوت نغماً والخط كلمة والجسد وجهاً

- لقد أعاد يسوع للمرأة اعتبارها وحررها من نير الدونية والانتقاص . عمله المحرر هذا تجلي إن على صعيد تعليمه أو على صعيد سلوكه

في سلوكه:

موقف يسوع الفريد من النساء:تجلى تعليمه عن المرأة في سلوكه. وقد كتب المطران غريغوار حداد بهذا الصدد:

لم يكن لديه أية "عقده" تجاه المرأة ☹ لا عقدة حذر منها ☹ ولا عقد خوف من المجتمع فيما يخص علاقته معها ☹ ولا عقدة استعلاء تجاهها لكونه رجلاً ☹ ولا عقدة استهزاء على أنها كمية مهملة يمكن الاستخفاف بها ☹ ولا عقدة استعمال واستخدام لأجل مأرب له أو رغبة جنسية .

و يقول جرجور حداد:" عندما نتخيل محيط يسوع الذي كان ينتقل معه من مدينة إلى مدينة أو قرية إلى أخرى فيجب أن نزيل من مخيلتنا الصحبة الرجالية الصرف فقد يكون عدد النساء التلميذات كعدد الرسل أن لم يكن أكبر . . . كانت النسوة دائما يشعرن إنهن لسن على الهامش أو غير مرغوب فيهن .

- ولنتأمل على سبيل المثال هذا المقطع من العظة السابعة والثلاثين لغريغوريوس اللاهوتي(النزينزي) يحتج به على تشريع عصره بحق المرأة :"لماذا تعامل النساء بقساوة بينما يسمح بكل شيء للرجال؟ المرأة التي تسربل رجلها بالعار تعد زانية والقانون يدينها بقساوة أما الرجل الذي يخدع إمراته فلا يُحاسب. أنا لا أوافق على هذا التشريع ولا أرضي عن هذه العادات. المشرعون هم الرجال ولذلك ينصبون قوانينهم ضد المرأة .

- **من حيث مصادقة المرأة**

كان من المستغرب أن تقوم صداقة بين الرجل والمرأة. ولكن يسوع قد تجاوز هذا العرف فقد كان معروفاً أنه مرتبط بعلاقة صداقة ليس مع لعازر وحسب بل مع أختيه مرثا ومريم أيضاً

- **يسوع اتخذ من حياة المرأة مادة لتعليمه:**

- في حين أن معلمي اليهود لم يكونوا يجرؤوا على ذكر النساء وعملهن في معرض تعليمهم

- يسوع أبدى إعجابه بإيمان بعض النساء

في حين أن المجتمع آنذاك كان يهمش المرأة حتى دينيا كما رأينا .

(ما أعظم إيمانك أيتها المرأة – متي ٢٥: ٢٨)

(الحق أقول لكم أن هذه الأرملة الفقيرة ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة لأنهم كلهم ألقوا من الفاضل عن حاجاتهم وأما هي فإنها من حاجتها ألقت كل ما تملك كل رزقها– مرقس ١٢: ٤٣– ٤٤)

" إننا حملة الإنجيل وقد اؤتمننا عليه وإلينا يعود أن يكون حياً فاعلاً في التاريخ أو حبراً على الورق وكاملاً جميلاً لا طائل له في سياق الحياة الاجتماعية الراهنة. فلندعه إذا يغيرنا في الصميم يحول نظرتنا إلى أنفسنا وإلى الجنس الآخر ويجعلنا خميرة تجدد في المجتمع الذي نحيا فيه "[٨٤] و في خلاصة لما ذكره الكاتب في الصفحات السابقة يقول:

. . . بقي ألا نكتفي بتأكيد مكانة المرأة في الإنجيل بل علينا دور في ترجمة هذه المكانة في صلب الحياة اليومية و علاقتها و ممارستها (علما بأن إعلان هذه المكانة كان في الإنجيل كما رأينا ممارسة حية قبل أن يكون كلاما) وألا نكون قد اتخذنا من حيث لا ندري من الإنجيل تبريرا لاستمرار الأوضاع الاجتماعية الجائرة بحق المرأة على ما هي ، متعللين بأنه لم يعد للمرأة ما تطالب به طالما أن الإنجيل أوفاها حقها ، و مستخدمين الإنجيل كنوع من المخدّر نلهي به الناس وأنفسنا بصور مثالية نتشدق بها عن الواقع البشع الأليم.

تعليق: ونحن المسيحيين لا نجهل كل ما ذكره بندلي عن موقف يسوع من المرأة بل أننا نعجب به أيما إعجاب لكننا نتوّقف عند حد الإعجاب وكأننا نشاهد مسلسلا تليفزيونيا نصفق في نهايته للبطل ثم نقوم بإغلاق الجهاز .

لكن المسيح ليس بطل مسلسل فهو إلهنا ومثالنا لكنه أيضا ديّاننا فماذا نحن

---

[٨٤] كوستي بندلي، المرجع السابق ص٥٧، ٧٦

فاعلون أمام تعاليمه؟ وما هي مسئوليتنا تجاهها. أم نحن فريسيون وكتبة جدد نشترك في إدانة المرأة التي أمسكت في زنا و ننتقد يسوع على اختلاطه بالخطاة وبالمهشمين؟ إذن فلنستعد لسماع الويلات التي سمعها الفريسيون من فم يسوع قبلا .

قضية خضوع المرأة: و في تساؤل يصل إلى عمق الموضوع مباشرة يقول كوستي بندلي : إيمانيا هل يتوجب على المرأة الخضوع؟ وكيف يتفق نص أفسس ٥: ٢٢- ٢٤) مع وجوب تحرير المرأة و مساواتها بالرجل؟ ويجيب في عدة نقاط أولها

١. وجهاً الكلام الإلهي

للكلام الإلهي وجهان : وجه إلهي ووجه حضاري، والأنبياء والرسل يتكلمون لغة العصر، ويسكبون الوحي الإلهي في قالب الصيغ الحضارية التي ينتمون إليها، لذا فإنه لا يسعنا أن نرى في كلامهم كلاماً إلهياً محضاً مطلقاً ولا تعبيراً حضارياً بحتاً إنما الاثنين معاً في تداخل حي يحترم الله فيه وضع الإنسان الراهن وينيره من الداخل دون أن يلغيه أو يقفز فوقه .

٢. الوجه الحضاري في كلام بولس الرسول

أ- إنه يعكس الرؤية الحضارية اليهودية

من جهة يعكس كلام الرسول بولس رؤية الحضارة اليهودية إلى المرأة كقاصر تنتقل من وصاية الأب إلى وصاية الزوج

ب. إنه يعكس الرؤية الحضارية الأبوية بشكل عام

و هي حضارة سادت العهد القديم، فاليونانيون مثلا كانوا يعتقدون أن عقاب الرجال الظالمين و الجبناء أن يتقمصوا نساء بعد موتهم (راجع الفصل الخامس) ويعلن كوستي بندلي انه رغم ما يقال عن تحرير المرأة و رغم ما تحقق فعلا في هذا المجال من انجازات فلا تزال تلك الأفكار سائدة إلى حد بعيد .

ج. إنه رد فعل على "أنثوية" الحضارة الرومانية :

وهي حضارة سائدة في ذلك العهد أي على الدور الذي كانت تلعبه "المرأة" وهي لم تختره بالطبع بملء إرادتها في الخلاعة البالغة التي كانت منتشرة في تلك الحضارة.

د- ملاحظة الذهبي الفم لهذا التوجه الحضاري في كلام بولس الرسول :

هذا و إن هذا الوجه الحضاري لكلام الرسول، الذي أصبح جليا في أيامنا بفضل تقدم العلوم الإنسانية لم يخف على يوحنا الذهبي الفم الذي لاحظه منذ أواخر القرن الرابع فإنه ، مع قسوته في الحديث عن المرأة يشهد أن بولس كان على شيء من حضارة عصره وأن كلامه مرتبط بترتيب حضاري وقد ذهب (يوحنا ذهبي الفم) إلى حد القول بأن المرأة – كما عرفها في أنطاكية و في القسطنطينية – كثيرا ما تكون سبّاقة للرجل في تقواها و في نضالها المسيحي لذا يمكن بالنضال الإنجيلي تجاوز الترتيب الذي يتكلم عنه الرسول بحيث تكون رأسا للرجل إذا كانت الأتقى !!! [٨٥]

الوجه الإلهي في كلام الرسول بولس

أما الوجه الإلهي لكلام الرسول بولس فلا يظهر في تجاوز للترتيب الحضاري بشكل واضح ومباشر بل التغلغل فيه وإعطائه معنى جديدا ونكهة جديدة يحولانه بالفعل عن مفاهيم تسلط الرجل و انتقاص المرأة وهو تحول أدخله بولس على الترتيب الحضاري بفعل جدة الإنجيل . . . وقد تجسدت بعبارة وهي " كما" التي قلبت على صغرها مضمون المفاهيم الحضارية التي حافظ عليها الرسول في الظاهر رأسا على عقب .

---

[٨٥] كوستي بندلي، المرجع السابق.ص ٧٩.

أ- رئاسة الرجل تتحول إلى صورة رئاسة المسيح : فرئاسة الرجل لا تستقيم إلا إذا أتت على صورة رئاسة المسيح وهي " كما أحب المسيح الكنيسة" فهي رئاسة الرأس الذي يحي الجسد بسهره على حسن سير وظائفه . رئاسة المسيح هي خدمة الحياة في أعضاء جسده جميعا" أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل" يوحنا ١٠: ١٠

- هي رئاسة خدمة ليس فيها استكبار ولا استعلاء ولا تسلط " ها أنا بينكم كالخادم" لوقا ٢٢: ٢٧ ، " وأبذل نفسي عن الخراف" يوحنا ١٠: ١٥" ذلك البذل الذي تم على الصليب وقد سبقه غسل أرجل التلاميذ بفترة قصيرة رئاسة الرجل للمرأة كما يراها الرسول هي رئاسة تستلهم الإنجيل : خدمة الحياة في المرؤوس إلى حد بذل الذات الكامل عنه إذا اقتضى الأمر. إنها تشكل بالتالي انقلابا جذرياً في مفهوم الرئاسة الشائع بين الناس والمسخر لصالح القوي على الضعيف :

"تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونها، وأن أكابرها يتسلطون عليها، فلا يكن هذا فيكم، بل من أراد أن يكون كبيراً فيكم، فليكن لكم خادماً، ومن أراد أن يكون الأول فيكم، فليكن لكم عبداً. هكذا ابن الإنسان لم يأت ليخدم بل ليخدم، ويفدي بنفسه جماعة كثيرة." (متى ٢٠: ٢٨)

- الكبير والأول في نظر المسيح ليس إذا الذي يستخدم سلطانه ليعظم نفسه ويحقق مآربه . ذلك هو"سلطان" المسيح كما أشير إليه في الإنجيل.

خضوع المرأة يتحول إلى صورة خضوع الكنيسة

إن خضوعاً كهذا ليس فيه أي أثر من العبودية أو الانتقاص لأنه خضوع طوعي يأتي جواباً على الحب الذي أفرغ ذاته حتى الصليب:

(ليس حب أعظم من هذا أن يضع نفسه من أجل أحبائه (....) لا أدعوكم عبيداً(....) بل أدعوكم أحبائي ....) (يوحنا ١٥: ١٥، ١٣).

كيف نفهم اليوم دعوة الرسول؟

يقول بندلي" لم يعد بوسعنا أن نتجاهل التوتر القائم بين جدة النفحة الإلهية التي تحرك الرسول بولس من جهة ، وعتاقة الأطر الحضارية التي نشأ وعاش في ظلها من جهة أخرى ، فنأخذ بحرفية كلام بولس الرسول كأننا نضع الجدة والعتاقة على نفس المستوى أي النفحة الإلهية والقوالب الحضارية التي جسدتها وقيدتها في نفس الوقت ولا بد لنا أن نسعى اليوم إلى ترجمة دعوة الرسول في الإطار الحضاري الجديد التي برزت فيه – بفعل عوامل تاريخية متعددة ليس أقلها ولا شك فعل الخميرة الإنجيلية في التاريخ البشري – حركة لا تزال محدودة في إنجازاتها تطالب بالمساواة بين الرجل والمرأة وهي مساواة نرى فيها نحن المؤمنين ترجمة على الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لإعلان الرسول نفسه "فليس بعد يهودي ولا يوناني ، ليس عبد ولا حر ليس ذكر وأنثى بل المسيح الكل " (غلاطية ٣: ٢٨) في هذا الإطار الجديد الذي ينتفي فيه التوزيع الجامد للأدوار بين الرجل والمرأة يُتاح لنا أن نقرأ اليوم في كلام الرسول بشأن علاقة الزوج بالزوجة دعوة إلى قيادة متبادلة و إلى طاعة متبادلة"[٨٦]

تعليق : وكأني أتفحص مشاعر الرجال وربما السيدات وهم يقرأون رأي بندلي فيثور البعض على ما يدلي به إذ يجدون أن هذا الكلام مخالفة صريحة لحرفية النص فيأخذ الغضب منهم مأخذا ويعقدون النية على عدم الأخذ به لا من قريب ولا من بعيد ، و ياليت عقد النية على عدم مخالفة أيا من وصايا الإنجيل تأخذ نفس الحماس و التدقيق كما تأخذ النصوص الخاصة بالمرأة !!! بل يخيل إليّ أن تلك النصوص التي نحن بصددها تثير في نفس

---

[٨٦] كوستي بندلي، المرجع السابق ص ٨١، ٨٢

البعض سرورا وارتياحا ولا يحاولون مجرد محاولة أن يفحصوا الخلفيات التي يحاول بندلي شرحها لتوضيح معانيها وبالتالي تطبيقها بشكل يناسب خلفيتها بالنظر للوضع الآني

- لكن و قبل أن ننهي الموضوع فهناك تعليق آخر بخصوص محاولات كلا من بندلي و فم الذهب بخصوص البحث عن صلة بولس الرسول و الأطر الحضارية التي حرّكت بولس الرسول و فيما إذا كان على شيء من حضارة عصره وما المقصود بهذه الفرضيات، و لنلاحظ بداية أن الأسلوب الذي يتناول به بولس الرسول موضوعات الأسرة في رسائله هو في الأساس أسلوب " القياس النموذجي" أي أسلوب فلسفي خاص بالنصائح والإرشادات التي تدور حول أسلوب تعامل رب الأسرة أو رأس العائلة مع أفراد عائلته، وكان هذا الأسلوب ينقسم إلى مناقشات تدور حول علاقة كل من الزوج بالزوجة ، والوالد بالابن ، والسيد بالعبد فهو أسلوب حوار مأخوذ من الكتابات الرومانية اليونانية التقليدية حول الأخلاق وهو مبحث مهم جدا عند الفلاسفة لأنه يترتب عليه نظام المجتمع كله [٨٧]

لكن الرسول قام بتغيير الأساس الذي تبنى عليه هذه النصائح فهو عند الفلاسفة والكتاب القدامى كيفية إخضاع أو امتلاك أهل البيت أما عند الرسول فكيفية المحبة

- في رأيي أن بولس الرسول كان على شيء من حضارة عصره و كيف يمكن أن ينكرها أو حتى يتخلى عنها؟

---

[٨٧] كريج س. كينر " الخلفية الحضارية للكتاب المقدس" الجزء الثاني ، دار الثقافة: القاهرة ٢٠٠٤، ص ٢٣٠

هل ليتكلم كلاما يصلح للقرن الواحد و العشرين؟! فماذا عن القرن الثالث والرابع ، الحادي عشر والخامس عشر؟ السابع عشر والثامن عشر ؟ هل نحن على دراية بأن قضية المرأة اختلفت على مر تلك العصور من الناحية الاجتماعية نفسها ، فبعد أن كانت القضية تحرير المرأة بنفس منظور و بُعد تحرير العبيد ، صارت المساواة بين الجنسين ثم تكافؤ الفرص ثم ظهرت حركات تحرير المرأة التي تدعو إلى ما يشبه " القصاص من الرجل" ثم ظهرت المناداة بفكرة "تمكين المرأة "فبولس كان لزاما أن يتكلم من منطلق إطار حضاري يناسب القرن الأول لأنه ببساطة يكلم أهل القرن الأول ولأنه لن يكلم أهل القرون التي لم تأت بعد بما تحمله من تطورات و قضايا و مشكلات . هذ ه نقطة، أما النقطة الثانية فإن الأطر التي كان الرسول ينطلق منها وقد تناولناها على مدى فصلين سواء الكلام عن الحضارات القديمة أو الفلسفة الغربية (لنراجع الفصلين الثاني والخامس) لم تكن قد اختفت و تم إبادتها في القرن الأول الميلادي، فالمجتمع الروماني – اليوناني أضف إليه اليهودي الديانة والعادات والتقاليد محمـلٌ بآراء وعادات و تقاليد وفلسفات في مجال الأسرة وفي مجال علاقات الجنسين بكمية هائلة من السلبيات تفوق أي إيجابيات في ذلك الوقت فماذا كنا ننتظر من الرسول أن يقول؟ على أن هناك استدراكا يجب التنويه إليه و هو أن ليس القصد أن بولس خاف مجتمعه أو مالئ مع المجتمع، هو عرض الوجه الإلهي كما أسماه بندلي في ضوء الواقع الموجود ، فهل كنا نتوقع من الرسول مثلا أن يقول لمجتمعه " اعملوا على تمكين المرأة " مستخدما المصطلحات التي ظهرت في القرن الماضي– أي العشرين– لأن أهل القرن العشرين فما بعد سوف ينادون بذلك!!! والواقع أنها دعاو ترد بالفعل في مضمون كلام بولس ولا تبعد عما كان ينادي به من إعادة تأصيل العلاقة .

إذن ماذا كانت مناداة الرسول في سياق ثقافته؟

- تلك الثقافة التي كانت تدعو لعدم إعطاء التقدير للمرأة والزوجة
- تلك الثقافة التي كانت تحت تأثير الفكر الأفلاطوني والأرسطي اللذين كانا يفزعان من فكرة تكوين أسرة وخاصة أفلاطون الذي خصص للموضوع في محاوراته وبالذات كتاب "الجمهورية" كلاما مسهبا عن ضرورة امتلاك المرأة على المشاع لكي يحرر المجتمع من التصارع حول النساء(لاحظ كلام بولس الرسول عن الجنسية المثلية في رسالة رومية ، فهو لم يكن يفرض فرضا من عندياته أو يتكلم عن حالة أخلاقية فقط ولكنه كان يتكلم عن دعوة تساندها فلسفة متأصلة من قرون و ما زالت تلقي بظلالها على مجتمع القرن الأول الميلادي بخصوص الأسرة كنظام اجتماعي وأيضا تفضيل الجنسية المثلية على الارتباط بزوجة
- تلك الثقافة التي انتشرت فيها عقائد و أديان آتية من الشرق و الغرب سببّت الإزعاج حتى لمجتمع بولس في ذلك الوقت بما حمله من نظرة لا توافق التعليم المسيحي والدعوة للحب والمساواة بخصوص الأسرة وانحلالها
- تلك الثقافة التي كان معدل سن الزواج فيها ٣٠ سنة للزوج وسن المراهقة للزوجة
- تلك الثقافة التي كانت تنادي بطاعة مطلقة للزوجة تحت تأثير الفكر اليوناني وتشيّيء الزوجة وتبيح "الاستغناء عنها" وليس طلاقها تحت تأثير المعلمين اليهود لأتفه الأسباب
- و ماذا عن عصرنا الحالي واختلاف الثقافات من حيث مجتمع القرية – المدينة ، المستوى الطبقي والتعليمي.. الخ؟ هل يمكن أن يكون هناك خطاب ذا شكل واحد يصلح لكل الفئات؟ فكيف نطالب بولس الرسول باستخدام خطاب إذا أخذناه بحرفيته يصلح للقرن الواحد والعشرين و الذي لن يصلح فيما بعد للقرن الثلاثين!!!!

● الكرة الآن في ملعبنا نحن الذين ندّعي العلم والمدنية والتطور و الحداثة ، هل لنا إدراك يهضم ويفهم ويقبل ما قاله الرسول لأهل الثقافة اليونانية-الرومانية في القرن الأول ويأخذ منه مضمونه وهو إعادة صياغة كيان الأسرة في إطار علاقة المسيح بالكنيسة ، ولنضع الآن تصورا لما يمكن أن يكون عليه شكل العلاقة بين الزوج والزوجة حسب مفهوم الخضوع للرجل كرأس يسمح له فيما بعد بالتسلّط بالمقارنة بما يقصده الكتاب المقدس بأن يكون الزوج رأسا مثل المسيح كرأس للكنيسة:

الرجل الراس [في المفهوم الشائع] في عصر بولس]	المسيح الراس[في المفهوم المسيحي]
● متملك و صاحب السلطة المطلقة ● لا يشغله الحب و لا الخدمة فهو يُخدم ولا يَخدم ● متحكم في ممتلكاته لفائدته الشخصية ● عار عليه أن يحب ● ليس أمام (ممتلكاته) سوى الطاعة العمياء وإلا تخلص منها بالقتل أحيانا	❑ لا يشغله التملك و السلطة المطلقة ولا يسعى إليها بل الحب و الخدمة ❑ يتطلع لكي يعطي حياة و أفضل حياة لجسده (فلا يمكن استخدام كلمة ممتلكات هنا) ❑ يحب ❑ يقيت جسده و ينميه بل و يموت من أجل جسده

أسمع الرجال في زمن بولس الرسول يضحكون بتهكم قائلين له : و هل إذا كان الرجل رأسا كما المسيح رأس فهل بعد ذلك يكون الرجل رأسا لم ...

-ثم وكأني بالرسول يخفض صوته ويضع كلمات بين السطور ويكمل كلامه بسرعة قائلا " خاضعين بعضكم لبعض" وسوف يكون المشهد : " حالة فزع و رعب و استنكار من المجتمع ال التصاعدي!!

-هل وصلت الفكرة يا أهل القرن الواحد و العشرين؟!

- هناك قضية أخرى يعلق عليها بندلي وهي:

قضية غطاء الرأس

يقول بندلي: "كانت المرأة في أسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا وكورسيكا وإيطاليا الجنوبية واليونان ولبنان إذا دخلت كنيسة وهي غير مغطاة الشعر ولو بمجرد منديل، تثير فضيحة" . والكاتب يبرز الطابع الحضاري لممارسة تغطية الرأس في مجتمعات البحر المتوسط وبما تفرضه تقليديا من قيود على النساء و يشير إلى أنه في نفس الحقبة الزمنية و في مجتمعات مسيحية أيضا في الشمال متأثرة بالقانون الجرماني الذي اعتبر المرأة منذ أقدم العصور شخصا على الصعيد الحقوقي لم يكن يعتد بالنص الخاص برسالة بولس ليفرض على المرأة غطاء الرأس

- "في ذلك الزمن عينه لم تكن النساء الخالية رؤوسهن من خمار تصدمن أحداً في كنائس باريس وشامبانيا التي لم يكن الرسول بولس يحظي فيها بإجلال أقل مما في كنائس باستيا وتارنت ... إذا عند التقاط الكلام نفسه كان "الغربال الذهني" لمسيحيي شمال نهر اللوار لا يحتفظ بنفس العبارات التي يحتفظ بها الغربال المتوسطي "[88]. ويورد

---

[88] كوستي بندلي،المرجع السابق ص ٩١

بندلي ملحوظة مهمة هنا فالكنائس التي لم تطبق ذلك النص ليست كنائس تريد مخالفة وصايا الرسول ولكن ببساطة مدلول الشعر المكشوف عندها متغير ومدلول البغاء في عهد الرسول نفسه قد تغير

أما موقفنا اليوم في رأي بندلي :

إن عددا من الكنائس تجاوب مع الرسول بولس في موقفه الحضاري لأن الموقف تشابه مع البيئة التي انطلق منها الرسول في حين أن كنائس أخرى لا تقل عن الأولى إجلالا لبولس الرسول لم تتقيد بتوصياته عن المرأة لأنها وجدت في مناخ حضاري مختلف

دور المرأة المسيحية في المجتمع[٨٩]

المقصود دورها الفريد الذي يختص بها كامرأة ويتميز عن الدور الذي يلقي على عاتق الإنسان المسيحي بوجه عام. وقد تكلم بندلي عن أدوار كثيرة يمكن للمرأة أن تقوم بها ونأخذ مثلين باعتبارهما محور الحديث الذي نحن بصدده:

١. دور المرأة المسيحية في المجتمع

هي مدعوة للانطلاق من هويتها الروحية كمسيحية ومن خصائصها الإنسانية ككائن بشري بكل ما في الكلمة من معنى لدور مهم لا يقل أهمية عن دور الرجل إنما يتلون بما لدى المرأة من فرادة. .. على نطاق يشمل المجتمع الإنساني الواسع الذي أقيمت الجماعة الكنسية في وسطه علامة وخميرة.

٢. دور المرأة المسيحية في الجماعة الكنسية

المرأة لعبت تاريخيا دورا مهما في الجماعة المسيحية ولأن كان هذا الدور قد تعرض للحد والانتقاص بسبب ما رأيناه من تسرب هيكليات

---

[٨٩] كوستي بندلي،المرجع السابق

الاستئثار والاستعلاء الذكوريَّين وما يرافقهما من ذهنيات داخل المؤسسة الكنسية بحيث خضعت الممارسات و المواقف الراهنة ضمن هذه المؤسسة لما هو أصلا غريب عن روحها و جوهرها من تمييز مجحف بحق المرأة . أما اليوم فهناك إعادة نظر شاملة بهذه المواقف و تطلع متزايد إلى إنصاف المرأة و إعطائها الدور الذي يتناسب مع طاقاتها الفعلية و كرامتها. و باعتقادي الشخصي أن ليس في التراث الإيماني ما يحد مسبقا من دور المرأة و من المسئوليات التي يمكن أن تدعى إليها ضمن الجماعة الكنسية، بل إن كل الاحتمالات يمكن أن تكون موضوع بحث مفتوح في خط أمانة خلاقة للتراث .

المرأة حقوقها وواجباتها

في الحياة الاجتماعية والدينية في الكنيسة الأولى

للأب متى المسكين

يبدأ الأب متى كتابه بخلفية تاريخية يشرح فيها الظروف التي أدت إلى اختلال التوازن في الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة فيقول:

- بدأ هذا الاختلاف تدريجياً عندما ارتضى كل من الرجل والمرأة أن يتجزّأ العمل ويتوزع بينهما في شبه اختصاص على أساس الإمكانيات الطبيعية، فأخذ الرجل الأعمال العنيفة المجهدة، وارتضت المرأة بالأعمال الأبسط والأقل واحتمت في مهام الحمل والولادة؛ الأمر الذي أضاف إلى الرجل قوة إضافية وسلب من المرأة قوة أصلية، فكانت النتيجة الحتمية بعد مضي عصور كثيرة أن صارت المرأة أضعف من الرجل وأقل كفاءة في ممارسة حقوقها الأولى التي كانت مساوية للرجل، من جهة إخضاع قوى الطبيعة والتسلط على الخليقة وكل مناحي الحياة، الأمر الذي بدأ

يظهر بوضوح بظهور المدينة وتطورها، والذي ترتب عليه أن اكتسب الرجل- ولكن عن جدارة- حقوقاً أكثر بسبب تفوقه في الأداء وحمل المسئولية، وبسبب رضى المرأة عن ضعفها الذي احتمت فيه وتمادت في استغلاله، دون أن تنتبه أن ذلك أفقدها برضاها حقوقها المساوية لحقوق الرجل، عندما تخلت عن المسئولية المتساوية التي كانت مترتبة أصلاً على الإمكانيات والسلطان مع الرجل[٩٠].

انكشاف هذا الإجحاف في الحقوق بصورة مزعجة:

بظهور المدينة ودخول الإنسان عصر الآلة، استولى الرجل في البداية – بغير وجه حق – على إدارتها دون المرأة، بحجة أنه الأقوى والأكثر قدرة على الاحتمال والمجادلة والصبر؛ وارتضت المرأة بذلك بسبب ظهور الآلة في البداية بصورة مخيفة وخطرة، وهكذا اتخذ الرجل من قوة الآلة حجة أنه الأقوى، مع أن قوة الآلة حلت محل قوته، فلم تعد لقوة الرجل في إدارة الآلة نفس المسئولية والجهد اللذين كان يتطلبهما السعي في الحياة بقوة الذراعين فقط.

- وقد ظهر هذا الأمر بصورة واضحة عندما تطورت الآلة ولم يعد يستلزم تشغيلها إلا أقل مجهود حيث لا تحتاج أحياناً أكثر من تحريك اليد أو الرجل أو الأصبع بالضغط على الأزرار أو على الزناد؛ وهنا بدأت المرأة تستيقظ وتكشف حقها الذي ضيعته باستكانتها فاقتحمت ميدان العمل ونجحت فيه نجاحاً باهراً كشف عن صدق الحقيقة الأولى أن بركة الله كانت للإنسان – عند الخليقة – بالتساوي بين الرجل والمرأة، وأن

---

[٩٠] الأب متى المسكين ، المرأة حقوقها وواجباتها في الحياة الاجتماعية والدينية في الكنيسة الأولى(برية شيهيت: دير القديس أنبا مقار، ١٩٨٢) ص ٩.

السلطان مُنح لهما معاً على قِدم المساواة إنما بصورة ائتلاف واتحاد في العمل لغاية واحدة.

وهكذا انكشف الإجحاف الذي لحق بالمرأة بسبب خرافة القول بأن القوة الجسدية هي الأساس في توزيع الحقوق والسيادة والسلطان، بين الرجل والمرأة.

- وحتى القول بالذكاء وسرعة البديهة – التي احتكرها الرجل باعتبار أنها من مواهبه الطبيعية – ثبت عدم صحته، لأن تلك كانت مرادفة لتفرُّد الرجل في الكفاح اليومي فهي مهارات اكتسبها بالمران تحت الظروف الصعبة، وليست خصالاً أو مواهب متأصلة في طبيعته من دون المرأة، إذ لما دخلت المرأة ميدان الكفاح والدراسة والتحصيل ثبت عدالة التوزيع في هذه الصفات، عندما حازت المرأة نفس المستوى الذي احتكره الرجل لنفسه عصوراً برمتها.

الرجل والمرأة هما في المسيح إنسان واحد كامل:

إن كان الله قد صار مصدر القوة الحقيقية للإنسان عموماً (راجع أف ١: ١٩ – ٣: ٧، ١٦، ٢٠ – أع ١: ٨) فقد بطلت حجة الرجل الأولى في اكتساب حقوق فائقة على المرأة بسبب قوته وأصبحت المرأة بالروح القدس في وضعها المسيحي الجديد – أي بقوة المسيح واتحادها بالرجل– مساوية تماماً للرجل في كل ما يخص بناء الإنسان الكامل الجديد وتكميل العمل لاستعلان ملكوت الله "لأجل تكميل القديسين، لعمل الخدمة، لبنيان جسد المسيح؛ إلى أن ننتهي جميعاً إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله إلى إنسان كامل إلى قياس قامة ملء المسيح " (أف٤: ١٢) حيث قامة ملء المسيح ليس فيها (ذكر وأنثى) بل "إنسان(واحد) كامل" أي "الكنيسة" وهي "جسد المسيح".[٩١]

---

[٩١] الأب متى المسكين ، المرجع السابق،ص ٢٠ .

• هكذا يشدد بولس الرسول "..... ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع" (غل٣: ٢٨) وهو لا يقول: "رجل وامرأة" بل "ذكر وأنثى" قاصداً إلغاء مفهوم كل من التمايز والتعالي الجنسي من كافة الوجوه. وهو بذلك يتغلغل إلى أعماق كل الأسباب التي فرّقت بين الرجل والمرأة بسبب الجنس. ويعود بولس الرسول في موضع آخر ليؤكد التساوي المطلق والمتبادل في الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة في الحياة المسيحية، بقوله: "غير أن الرجل ليس من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل في الرب" (١كو١١: ١١) ثم يعطي هذا التساوي بين الجنسين مفهوماً آخر غير الذي يقال على أساس أن حواء هي من آدم: "فقال آدم هذه الآن عظم من عظمي ولحم من لحمي... ويكونان جسداً واحداً" (تك ٢: ٢٣و ٢٤) إذا يقول بولس الرسول: (كما أن المرأة هي من الرجل هكذا الرجل أيضاً هو بالمرأة ولكن جميع الأشياء هي من الله" (١كو ١١: ١٢).

• وهكذا إذ يعيد بولس الرسول كل شيء إلى الله كمصدر للحياة برمتها يقرر أنه يمتنع التقديم والتأخير بين الرجل والمرأة في كل شيء، خاصة وأن المسيح جعل الاثنين واحدا فيه كغاية ونهاية للحياة الحقيقية، فالمرأة حينما تتحد بالمسيح تساوي الرجل تماماً حينما يتحد بالمسيح وإذا اتحد الرجل بالمرأة في المسيح صارا في المسيح إنساناً واحداً كاملاً. وهكذا ترتفع مشكلة الجنس إلى المستوى السرائري لتصل إلى الوحدانية في طهارة الرؤية والتفكير ؛ وهنا لا يلغي الروح القدس جمال الخلقة الأولى بل يرفع منها العثرة، ويعيدها إلى كمالها.

• لكننا نجد بولس الرسول يحن إلى تقليده الفريسي في ذكر حوادث ظهور الرب للمختارين عقب قيامته فهو يذكر أنه ظهر أولا لبطرس وهنا يسقط عمدا اسم مريم المجدية ثم يأتي بذكر كل من ظهر لهم المسيح دون ذكر امرأة واحدة [٩٢]

---

[٩٢] الأب متى المسكين ، المرجع السابق، ص ٢٣

• لكن يأتي هيبوليتس المدعو بالروماني (وهو إسكندري الجنس بكل تأكيد) ويصحح هذا الاعتبار فيدعو مريم المجدلية بلقب عجيب "رسول الرسل" وذلك في شرحه لسفر نشيد الأناشيد[٩٣]

• ويلاحظ أن حلول الروح القدس بنفس السرعة على النسوة وامتلاءهن منه بنفس القوة وحصولهن على مواهب الروح، لم يثر أية دهشة أو تساؤل بين التلاميذ أو الكنيسة عامة؛ وذلك بسبب المبادئ والأسس التي سبق أن أظهرها الرب في حياته كنموذج لهذا السلوك الأخلاقي الروحي المتسامي. لقد وعى التلاميذ درس معلمهم اليومي.

نعم لكي تتساوى المرأة مع الرجل في الحقوق ، يتحتم أن تدرك هي أولا سمو ميلادها الآخر الذي رفع عنها تدنيها بسبب أنوثتها :" الذين وُلدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله " يو ١: ١٣

المرأة في أيام المسيح

(كانت المرأة اليهودية مغطاة الرأس بحيث لا تظهر معالم وجهها على الإطلاق حبيسة المنزل تحت سلطان زوجها أو أبيها لا تتمتع بحق العبادة المتساوية مع الرجل لأنها محتقرة على المستوى الديني).

• أما الكتابات المنقولة من ذلك العصر وما قبله فهي تخلو تماماً من أوصاف تُطلق على المرأة كتلك الأوصاف التي كان يوصف بها رجل الدين فلا يعثر قط على اصطلاح "غيورة" أو "صديقة" أو "قديسة" بالنسبة للمرأة مثلما يطلق "هاسيد" "صاديق" "قادوش" على الرجل. والناموس نفسه يقول عن المرأة أنها دون الرجل، أما المسيح فكان تعامله مع المرأة على مستوى لم يسبق له مثيل في تاريخ اليهود، فقد اصطحب عدداً كبيراً منهن يلازمنه معه كالإثنى عشر، منهن من كن من عامة الشعب ومن كن من طبقة الحكام – الفقيرات والغنيات سواء بسواء.(لو ٨: ١-٣)

---

[٩٣] الأب متى المسكين ، المرجع السابق،ص ص ٢٣

وهؤلاء بقين مع المسيح كل سني خدمته لم يفارقنه(مر ١٥: ٤٠، ٤١) مع الأخذ في الاعتبار أن ظهور النسوة وسيرهن علناً وسط الجماهير وتركهن لمنازلهن كان حدثاً جللاً في إسرائيل لأن هذا كان يمثل ثورة على التقاليد اليهودية فيما يخص المرأة، الأمر الذي دخل رسمياً ضمن التهم الموجهة ضد المسيح والتي كانت تدعو إلى صلبه: "إننا وجدنا هذا يفسد الأمة" (لو ٢٣: ٢) ولكن المسيح بهذه الصورة أعطى النموذج الواضح الناطق لحق المرأة في العمل والسير مع الرجال للاشتراك في خدمة المسيح والاستماع إليه والاستجابة له بل والدخول إليه بدالة فائقة إذ لا ننسى اقتحام أم ابني زبدي عرشه غير المنظور لتطلب منه مستبقة الحوادث: "حينئذ تقدمت إليه أم ابني زبدي مع ابنيها وسجدت وطلبت منه شيئاً فقال لها ماذا تريدين فقالت له قل أن يجلس ابناي عن يمينك والآخر عن اليسار في ملكوتك" (متى ٢٠: ٢١)

-ويمكن بوضوح اكتشاف منهج فكري كامل يختطه المسيح بالنسبة لخروج المرأة وعملها في الحقل الديني مع الرجال سواء بسواء، لأنه بعدما سمح للنسوة بالسير معه في كل مدينة وقرية ضمن زمرة التلاميذ عاد إلى التلاميذ محذراً: " وأما أنا فأقول لكم كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه" وهذا يكشف ضمناً أن المسيح سمح للمرأة برفع الحجاب بعد أن قنن للرجال كيفية التعامل معها، لأن أصل وضع الغطاء على رأس المرأة هو عمل وقائي للرجل وليس للمرأة[٩٤].

ثم يواصل الأب متى المسكين:

ضوابط على الحقوق وأسباب ذلك:

"يعود التقليد الإنجيلي وخاصة بواسطة بولس الرسول بعد ما صب الحقوق كلها بالتساوي على نصيب المرأة ليكون مساويا بالروح وفي الروح مع الرجل في كل شئ يعود ويضع لها ضوابط ويظهر وكأنه

---

[٩٤] الأب متى المسكين ، المرجع السابق،ص ٣٧

حريص كل الحرص من أن تُستغل الحرية خطأ من أجل الجسد ويفلت زمام الكنيسة

فهو في نفس الرسالة التي كتب فيها: "ليس الرجل من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل في الرب لأنه كما أن المرأة هي من الرجل هكذا الرجل أيضاً هو بالمرأة" (١كو ١١: ١١ و ١٢). وهكذا يبدو كل شيء وكأن المرأة قد دانت لها الرئاسة في الكنيسة يعود تواً إلى وضع كل حق في حدوده ونصابه، فالحقوق التي مُنحت للمرأة روحية صرف فهي لها المسيح ككل ولها الروح القدس والأسرار والمواهب جميعاً على مستوى الروح لميراث نصيب مساو تماماً ومشترك في كل شيء مع الرجل في المسيح لله !! ولكن حينما ينحدر بولس الرسل إلى الكنيسة التي لا تزال تعيش على الأرض تحت نير الجسد ووسط عالم شرير ومعاثر حتمية كما ينظر إليها إنسان هذا الدهر فهي أنثى وموضع التفات ومصدر إعثار خطير بصوتها ووجهها وكيان جسدها بل وفي كل حركة وسكنة من حركاتها وسكناتها.

إذن طالما نحن نعيش في الجسد فيتحتم أن نتحاشى إعثار الجسد وخاصة داخل الكنيسة .

- هنا يهدف بولس الرسول من منع المرأة عن تعليم الرجال، ليس لأن التعليم ممنوع عليهن أو ممتنع لديهن لأن كل المواهب يشتركن فيها، ولكن لأن تعليم المرأة للرجال في الكنيسة يعطيهن الرئاسة أو التسلط على الرجال وهذا ما يراه بولس الرسول غير جائز لذلك فهو يؤكد على المرأة بضرورة السكوت بكل خضوع في حضرة الرجال داخل الكنيسة كأمر نهى حتى لا يتسلطن على الرجال، ومن هنا يأتي المنع البات من

الدخول في الرسامات التي تعطي حق التعليم داخل الكنيسة وبالتالي الرئاسة على جماعة المؤمنين وهنا ينغلق الباب أمام المرأة للاشتراك في إقامة الإفخارستيا. [٩٥]

تعليق: النساء أين اختفين[٩٦]

ومن ناحية أخرى ، نستعرض ما كتبه طارق أبو الحسن في دورية عصور تحت عنوان المسيحية ، أين اختفت النساء فيقول:" كانت دائما هناك نسوة اخترن يسوع المسيح وخدمنه من أموالهن و تبعنه في تجولاته حين كان في الجليل و صعدن معه بعد ذلك إلى أورشليم و كن له تابعات مخلصات و تلميذات نابغات ، و أكثر من ذلك كانت النسوة الشاهدات الوحيدات على أخطر و أهم واقعتين في تاريخ العقيدة المسيحية : واقعة الصلب والدفن وهاتان حادثتان لم يشاهدهما أي من التلاميذ الاثني عشر ما عدا يوحنا ثم واقعة القيامة و الظهور حيث شاهدن من قريب أو من بعيد كلهن أو إحداهن ثم قمن كلهن أو بعضهن بالرواية و التبليغ والتي شاهدتها النسوة فقط

. . لقد فهم الرسل أخيرا أن حادثة الصلب – التي لم يشاهدوها و شهدتها نسوة مخلصات لا يمكن اعتبارها حادثة فاشلة بدون معنى أو انتحار أو تهور بدون داع بل إن لها مغزى عميقا و هدفا مقصودا و قدرا محتوما منذ الأزل و توجها أخيرا نحو النصر النهائي: انتصار الله ضد كل الأشياء الشريرة . لم ينته التاريخ بعد . .

✎ و لكن كيف سيكتب الرسل تفاصيل الأحداث الأخيرة الجسيمة و المتلاحقة في حياة معلمهم يسوع و هم لم يشاهدوها على الإطلاق؟ الحل

---

[٩٥] الأب متى المسكين، المرجع السابق ص٣٧.

[٩٦] طارق أبو الحسن، العصور الجديدة ، السنة الأولى ، العدد التاسع مايو ٢٠٠٠ ص ص ٦٦-٦٨

هو ضرورة الاستماع إلى التفاصيل الدقيقة لهذه الأحـداث مـن النـسوة اللاتي كن تحت الصليب واللاتي عرفن موضع الدفن في القبر الجديد في بستان يوسف الرامي و ذهبن إلى القبر في الصباح الباكر من يوم الأحـد لزيارة القبر و اكتشفن القبر الخالي و دحرجة الحجر الكبير من عليه ، ثم مقابلتهن ليسوع بعد قيامته من الموت . و ليتذكروا ما قال الرب لهم عقب قيامته

✍ و عندما ذهبت مريم لتخبر التلاميذ بما رأت " فلما سمع هؤلاء لـم يصدقوا " لدرجة أن كلام النسوة تراءى لهم كالهذيان ولم يصدقوهن " لوقا ٢٤: ١١ " أما توما الرسول نفسه عندما أخبره الرسل عن القيامـة قـال لهم: إن لم أضع إصبعي . . لا أومن" يوحنا ٢٠: ١٩ – ٢٠

✍ هكذا فكر الرسل وهم مهمومون بتسجيل سيرة حياة الرب في الأيـام الأخيرة فالمعلومات ناقصة و التفاصيل الدقيقة مجهولة فكيـف يكتبـون أحداثا لم يشاهدوها أو يشاركوا فيها أو حتـى سـمعوا تفاصـيلها مـن الشائعات التي تملأ أورشليم عن سرقتهم لجثمان يسوع . وهنا فإن النسوة كن مصدر معرفة الرسل بكل ما لم يعلموه.

✍ و يتساءل الكاتب كيف يمكن أن نفسر الصمت التام الذي يصل إلـى حد الكتمان والإخفاء عن دور النساء البالغ الأهمية أثنـاء حيـاة يـسوع وصلبه و دفنه و قيامته و امتداد هذه الدور الفعـال حتـى فـي تأسـيس الكنيسة الأولى و نشر المسيحية خارج حدودها الجغرافية؟ و لماذا تـشدد بولس ضد النساء ؟ صحيح هو القائل " ليس . . رجل وامرأة" ثم يشير الكاتب إلى النصوص التي ذكرها بولس الرسول عن المـرأة ويـرى أن الموضوع يحتاج إلى قراءة تراث المنطقة الـديني والفولكلـوري قبـل انتصار المسيحية الذي يلقي بظلاله على بعض من تلك الأحـداث التـي

يعالجها في مقاله ويرى أن مادة البحث بأكملها تنتمي إلى تراث المنطقة .

ثم نكمل مع الأب متى المسكين إذ يتكلم عن رتب الأرامل فيقول:

رتبة الأرامل :

يمر هذا الموضوع بثلاث مراحل لا علاقة للواحدة بالأخرى:

اولا: يبدأ في سفر الأعمال بنوع الأرامل اللائي يرتزقن من الكنيسة بسبب عدم وجود مصدر عيش لهن(أع ٦: ١) ، ثم بدأن يشتغلن معا (أع ٩: ٣٩)

ثانيا: أرامل على المستوى العام وليس نظاما محددا ولكن لكي يكون لهن دور في الخدمة ويشترط عليهن شروطا وأن تكون لهن سيرة في القداسة(اتي ٢: ١-٤)

ثالثا: أكرم الأرامل واللاتي هن بالحقيقية أرامل... التي هي بالحقيقية أرملة ووحيدة وقد ألقت رجاءها على الله وهي تواظب على الطلبات والصلوات ليلاً نهاراً فاوص بهذا لكي يكن بلا لوم. لتكتتب أرملة إن لم يكن عمرها أقل من ستين سنة امرأة رجل واحد مشهوداً لها في أعمال صالحة إن تكن قد ربتت الأولاد أضافت الغرباء غسلت أرجل القديسين ساعدت المتضايقين اتبعت كل عمل صالح " (اتي ٥: ٥- ١٠)

ويقدم الأب متى شرحا لهذا النص فيقول:

"هذه هي الدرجة الأخيرة والكاملة في در"جات الأرامل . . . ونحن نرى هنا اتجاها نسكيا محددا وحياة روحية داخلية عميقة غير ما سبق من درجات الأرامل اللواتي تتجه حياتهن نحو العمل وأداء خدمات للجماعة . . . . ومن هذا يتضح لنا أن الأمر ليس هيناً إذ يلزم الاختبار الدقيق ثم الاختيار الذي يكون في أضيق الحدود ليتكون منهن هيئة محددة داخل جماعة الكنيسة الرسمية في موازاة الدرجات الكهنوتية الأخرى وإن كانت لا تحسب منها".

ثم يشرح رأي ترتليان فيقول:

العلامة ترتليان يصف رتبة الأرامل في كنيسة قرطاجنة:

يعرفنا العلامة ترتليان أن الأرامل كانت لهن مواضع خاصة في الكنيسة للدلالة على كرامتهن الخاصة بل وضع هذه الكرامة في وضع مقابل لكرامة القسوس إذ يقول إن المذنبين الذين كانوا يريدون أن يتصالحوا مع الكنيسة كان عليهم أن يتقدموا في وسط الكنيسة "ويسجدوا أمام الأرامل وأمام القسوس"

- وكانت رتبة الأرامل في نظر ترتليان داخلة مع رتبة الأسقف والقس والشماس ضمن الهيئة الكنسية المسئولة عن حفظ النظام الكنسي والإرشاد بحيث أن كل من كان يريد أن يتزوج كان عليه أن يعرض عليهم مشروعه ويستشيرهم فيه [٩٧]
- وفي مواضع أخرى يبين بوضوح أن رتبة الأرامل تدخل ضمن النظام الكنسي (ORDO) ومعروف أن هذه الكلمة اللاتينية في كتابات ترتليان ترادف الكلمة "اكليروس" عند الكتاب اليونانيين المسيحيين
- كم من الرجال والنساء في نظام "ordo" الكنيسة يمارسون العفة! فقد فضلوا أن يدخلوا في زيجة روحانية مع الله ..
- فالنساء اللائي ضمن ordo الكنيسة في زمن ترتليان هن الأرامل
- إن الزواج للمرة الثانية يشكل خطراً على الإيمان وعائقاً للقداسة ،فإن قانون الكنيسة ووصية الرسول بولس يبينان ذلك بوضوح فإنهما لايسمحان للرجال الذين تزوجوا مرة ثانية أن يقودوا الكنيسة وكذلك لا يسمحان بقبول أرملة في النظام ordo (أي الرتب الكنسية الرسمية) إلا إذا كانت أرملة رجل واحد وهكذا فجميع المنتخبين في

---

[٩٧] الأب متى المسكين ، المرجع السابق، ص ٤٨

الكنيسة يختارون من بين القديسين لأن المذبح المقام لله ينبغي أن يكون طاهراً[98].

🙜 هذه النصوص توضح وضع المرأة في الكنيسة ومساواتها مع الرجل من جهة الكرامة ولكن لا ينبغي أن نفهم من ذلك أن هذه المساواة تمتد إلي المستوى الوظيفي فترتليان لا يأذن للمرأة بأي مشاركة علي المستوى الوظيفي

🙜 أما عن هيبوليتس فيقول الأب متى:

في كتاب التقليد الرسولي لهيبوليتس

🙜 ويحدد هيبوليتس أن رتبة الأرامل هي نظام كنسي وأن الانضمام لها يكون تحت شروط باختبار دقيق ولكن لا يتضمن ذلك رسامة كنسية لأن الرسامة تكون لأفراد الإكليروس لإقامة الليتورجيا.

🙜 ودور المرأة في التنبؤ وأخذ الإعلانات من الله لا يعني أنها يمكن أن تتعالى بسبب ذلك على الكهنة ويقول في ذلك القانون[99]:

🙜 (وتنبأ أيضاً النساء في العتيقة مريم أخت موسى وهرون وبعدها دفورا(دبورة) وبعدهما أولدا (خلدة – ٢مل ٢٢: ١٤) ويهوديت الواحدة في عصر يوسيس (يوشيا) والأخرى في زمان داريوس وفي الحديثة أم الرب تنبأت وأليصابات نسيبتها وحنة وبنات فيلبس ولم تستكبر هؤلاء على الذكور(أي الرجال) بل حفظن حدودهن)

---

[98] الأب متى المسكين ، المرجع السابق،ص ٤٧: ٥٠

[99] الأب متى المسكين ، المرجع السابق،ص ٥٠

✍ فهذا القانون يبين أن امتناع المرأة من الكهنوت ليس بسبب تخلفها الروحي عن الرجل فهي من الناحية الروحية قد تصل إلى درجة النبوة غير أن أعمال الكهنوت ليست في حدود اختصاصها.

ومن حق الشماسة أن تأخذ من خبز البركة الذي يوزع بعد نهاية القداس على أعضاء الإكليروس وسائر الرتب الكنسية دون أفراد الشعب

و يواصل الأب متى فيذكر خطاب بلليني:

خطاب المؤرخ بلليني الصغير يلقِّب هؤلاء الخادمات ب" الشماسات" الخطاب الموجه إلى الإمبراطور تراجان في بداية القرن الثاني الميلادي فيما يختص بمسحيي بونتس بأسيا الصغرى ويقول المؤرخ:

". . . كذلك فإن المفهوم المباشر لعمل الشماسات هنا هو الخدمة ولكن ما هي هذه الخدمة ؟ هل هي خدمة داخل الكنيسة ؟ علماً بأن أي خدمة للنساء داخل الطقس الكنسي لم تتعد قط مساعدة الأسقف في مباشرة طقس التعميد وبالنسبة للنساء فقط بالإضافة إلى حقهن في الاشتراك في العبادة الجماعية وخدمة المرضى.

وهكذا يبدو واضحاً أنه منذ هذا الوقت (بداية القرن الثاني) بدأت خدمة الشماسات بغرض مساعدة الأسقف والشماس فيما يختص بخدمة النساء"[١٠٠].

خطر الانحراف والتمادي في الحقوق التي ليست لهن:

وهنا يفصّل الأب متى المسكين موضع سبب عدم التصريح للمرأة أن تعلم الرجل النصح والإرشاد أو تقيم إفخارستيا الصلح والغفران لأنها العنصر

---

[١٠٠] الأب متى المسكين ، المرجع السابق،ص ٤٦

الأضعف إزاء الغواية والخطأ وهي التي حصلت في التعدي وأوقعت آدم معها ؟

" .. ومما يؤيد هذا أن جماعة الرسل أوضحت لنا كيف أن النساء بدأن يأخذن نصيباً كبيراً في الخدمات الرسمية للجماعة وبأشكال متعددة ولكن هذا لم يمر دون شطط لأن عظم الدور الذي كانت النساء يقمن به في بداية انتشار الكنيسة سهل لهن الرغبة في القيام بمهام كان لا حق لهن فيها بل إن دورهن الكبير هذا سهّل لهن إفساد ما هو داخل في نطاق مسئوليتهن أيضاً.

- وقد بدأ تسجيل ذلك منذ القرن الثاني في كنائس الهراطقة غير أنه ليس من السهل معرفة الحدود بين ما كان أرثوذكسيا وما كان من عمل الهراطقة.

ولكن من الأمثلة الواضحة ما كان حادثا عند الهراطقة المدعوين: المرسيونيت الذين كانوا يدعون خلفاء القديس بولس الرسول وهؤلاء وجه العلامة ترتليان أقواله هذه:

(يا لهذه البجاحة التي نراها بين نساء هؤلاء الهراطقة إنهن تجرأن أن يعلمن داخل الكنيسة ويشتركن في المناقشات ويمارسن إخراج الشياطين مدعين عمل الشفاء بل ويعمدن أيضاً)

- غير مسموح للنساء أن يتكلمن في الكنيسة وكذلك أيضاً فإنهن ممنوعات من وظيفة إعطاء التعاليم أو العماد أو تقديم ذبيحة كما يحظر عليهن أي ادعاء لأداء لأية خدمة من اختصاص الرجال أو فيما يختص بالأسرار عامة. هذا فيما يخص الأسرار رسمياً، أما فيما يخص عمل الإرساليات والصلاة والتنبؤ داخل الكنيسة فحقهن في لك كان غير متنازع عليه وهكذا استمرت النساء في هذا المضمار[١٠١].

---

[١٠١] الأب متى المسكين ، المرجع السابق،ص ٤٦.

تعليق: ولعل من المناسب هنا ذكر شئ عن وصية الصمت التي أوصى بها بولس الرسول في كنائس كورنثوس " ١ كو ١٤: ٢٦- ٤٠ " من كتاب **مارلين ب. لين سميث و عنوانه "النوع أم المواهب"** [١٠٢] عن معنى الآية " لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذونا لهن أن يتكلمن" فتقول: " لو أخذنا هذه الآية حرفيا لما استطاع النساء أن يرنمن أو يقدمن أي إعلان أو يشتركن في صلاة كنسية أو قراءات ولما طلب منهن أن يعلمن في مدارس الأحد وواضح أنه لا يوجد من يفسر هذه الآية هكذا بحرفيتها وبدلا من ذلك فقد استخدمت كلمات بولس لمنع النساء في المشاركة في العبادة أو خدمة المائدة المقدسة بدرجات متفاوتة " ثم تتساءل قائلة:"ما سياق هذه الآية ؟" وتجيب "يحاول بولس أن يتعامل مع التشويش في العبادة الجهرية" ثم تشرح قصد بولس في التنظيم وتنتقل إلى معنى الصمت المقصود في الآية فتقول:" توجد ثلاثون كلمة في اليونانية يمكن ترجمتها " يتكلم" بعضها يعني الإعلان ، والقول، والحديث، والتعليم ولكن إذا أردت أن تقول : من فضلك لا تتكلم أثناء الصلوات فإنك تستخدم الفعل Laleo وهو الفعل الذي استخدمه بولس ، وحيث أن تعليمات بولس الرسول لها علاقة بالنظام في الخدمات التعبدية فمن الواضح أنه كان يأمرهم بعدم التحدث أي عدم الاستمرار في الكلام أثناء العبادة

✍ وتتساءل مارلين عن المقصود بالناموس في قول بولس الرسول" لأن ليس مأذونا لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضا " وحيث لا توجد فقرة في العهد القديم تطلب من النساء ألا يتكلمن فربما يشير بولس إلى التقليد الذي يقيد حرية النساء في الاشتراك العبادة الجهرية

و تشرح مارلين قصد بولس فتقول:" كان بولس الرسول يتكلم عن النظام في الكنيسة و سار مجرى الكلام في هذا النص كالتالي:

---

[١٠٢] مارلين سميث ، ترجمة إدوارد وديع عبد المسيح ، النوع أم المواهب(القاهرة: دارا لثقافة، ٢٠٠٠) ص ١٠٢،١٠١

مقارنة بين النبوة والألسنة و التنظيمات : أي الحديث عن تشويش بعض النساء الذي يحدث أثناء الوقت المخصص للتعليم

- ثم يغير الرسول الموضوع من سكوت المرأة بطريقة شاملة (عدد ٣٤) إلى قيامها بتقديم أسئلة (٣٥أ)
- ثم يعود بولس للصمت التام المفروض مرة أخرى(٣٥ ب)

ومحور الكلام في كل تلك التعليمات ليس جنس المرأة بل ضعف التعليم لدى النساء ، والرسول لا يطلب منهن ألا يتعلمن ولكن أن يساعد الأزواج زوجاتهم على التعلم في البيت منعا للشوشرة حتى لا يقاطعن سير الحديث

🙰 هنا تجدر الملاحظة أنه كان من المعتاد في ذلك الوقت أن المستمع يمكنه أن يسأل أثناء المحاضرة إذا كان ذو خبرة و علم، أما أصحاب الخبرة القليلة فكانت أسئلته تعتبر مقاطعة غير مقبولة [١٠٣]

🙰 و على كل فلننظر إلى حالات مماثلة و معاصرة حتى في أيامنا هذه :فحتى وقتنا هذا ما زالت بعض كنائس القرى تحتفظ بالدور الثاني في الكنيسة لجلوس المرأة أثناء العبادة ومتابعة ما يدور في الدور السفلي من العبادات عن طريق طاقات، وإلى وقت قريب كانت النساء أميات في الغالب فلم يكن يتمكن من متابعة كل ما يجري وكنت ترى النساء يجلسن جماعات ومعهن أطفالهن ولم يكن الأمر يخلو من جلسات تشبه " السمر" إلى حد ما نتيجة لجهل ما يدور وللبعد عن المكان الذي تجري فيه العبادة . و نفس الشيء يحدث عندما يجتمع المسلمون لصلاة العيد في وقت صباحا في الساحات المخصصة لذلك وحتى يومنا هذا و في قلب القاهرة حيث تجلس النسوة في الصفوف الخلفية في شكل جماعات تتبادل الحديث وقد تجد إحداهن أن التجمع فرصة لعرض بعض السلع البسيطة للبيع ،

---

[١٠٣] كريج س. كينر " الخلفية الحضارية للكتاب المقدس" الجزء الثاني ، (القاهرة: دار الثقافة، ٢٠٠٤)، ص ١٦٨ .

بالطبع يحتاج الموضوع إلى تثقيف عند الجانبين حتى يمكن القضاء على هذه العادات ولكن ما يثبت من هاتين الواقعتين أن المشكلة هنا لا تتعلق بجنس المرأة بل الموضوع يتناول درجة تعليمها ووعيها وبالتالي فالمشكلة هنا تنظيمية لا دخل لها لا بالفقه ولا باللاهوت الذي يحرم مشاركة المرأة في إجراءات العبادة

و مازلنا مع الأب متى المسكين :

المرأة عند القديس كيرلس الكبير[١٠٤]

يتناول الأب متى المسكين رأي القديس كيرلس في موضوعنا فيقول:

أما القديس كيرلس الكبير فيمكن جمع منهجه الفكري تحت اتجاهين

الاتجاه الأول: "سيكولوجية المرأة"

الاتجاه الثاني: الاتجاه اللاهوتي نحو المرأة

(هذا أيضاً يعتمد على نظرتين أساسيتين تجاه المرأة فالمرأة هي: مَثَل أو رمز أو إشارة لعنصرين نفسيين هما:

١- النعومة

٢- إحساس اللذة

وهو يقول (إن كل شر وزلل إنما يأتي عن طريق هذين العنصرين الكائنين في طبيعة المرأة)

-وكيرلس الكبير يعزو ضعف المرأة إما للطبيعة عامة أو للتفكير أو للإرادة وهذا ما يزيد من سهولة الخطية.

-ولكن لا يشدد كيرلس الكبير على أن هذا الضعف هو حالة عامة أو شاملة لكل النساء ولا الإحساس باللذة أمر يمكن تحديده بصورة واضحة .

-وهكذا يتوقف رأي كيرلس الكبير السيكولوجي للمرأة على أن الصفة المعيارية للمرأة هي التي تحدد ما هية المرأة

---

[١٠٤] الأب متى المسكين ، المرجع السابق، الفصل الثامن

- فالمرأة بالرغم من أن لها نفس الجوهر الطبيعي الذي للرجـل إلا أن هناك اختلافات بينهما ومن مظاهر هذا الاختلاف أو التمايز أن المرأة نفسها تفضل أن تلد ذكرا عن أن تلد أنثى، لماذا وهي أنثـى؟! هـذا يوضح تجذر الاختلاف
- وكيرلس يعتمد على قول بولس الرسول (١ كو ١١: ٩) فيقـول إن آدم كان في خلقته أكمل بالضرورة (من الناحية السيكولوجية) مـن المرأة التي خلقت لتكون من أجله
- وفي الحقيقة هناك إشارة أكثر وضوحا تعزز قول كيرلس الكبير عن هذا القصور الذي أصابها من الله عن عمد عندما عاقبها على المخالفة بقوله: " إلى زوجك يكون اشتياقك" وهذا العقاب أفقـدها القـدرة أن تكون ندا للرجل دون معاناة[١٠٥]

تعليق: إذا عدنا لبداية كلام متى المسكين عـن حجـب فـرص الـتعلم والمشاركة عن المرأة فماذا نجد اليوم بعد أن زالت تلك الحجب؟ نـساء يفقن بعض الرجال في المستوى التعليمي أو المهني أو العملـي أو نـسبة الدخل وهذا التفوق قد يرجع لأسباب عدة، وليس هذا بيت القصيد وإنمـا ما يجب الالتفات إليه أننا الآن لا نستطيع أن نقرر وبشكل قاطع أيا مـن الجنسين الذي يتمتع بالتوازن النفسي والعاطفي أكثر وأي منهمـا يبـدي نضجا واستواء في الشخصية أكثر فبعد أن أتيحت فرص التعليم والعمـل والاحتكاك بالحياة في مختلف الاتجاهات والمناحي فإننا لا نعـدم نـساء يبدين مستوى ملحوظا من الاتزان والنضج ونموا في الشخـصية قـد لا يصل إليه بعض الرجال، وعلى الجانب الآخر فإن التغيرات التي تلحـق بالعالم كله سواء أكانت فرص نمو أو نوعية مـشاكل أو قـضايا مثـارة أوجدت نوعية من الرجال و النساء تتفاوت في القـدرات والتطلعـات ،

---

[١٠٥] الأب متى المسكين ، المرجع السابق،ص ٨٣.

وهناك واقعة حديثة تظهر فيها المرأة في وظيفة عمدة قرية كوم بوهـا – ليس لأنها وجدت مجاملة من أحد بل عن جدارة وكسب ثقة أهل بلدتها

• ومن هنا فإننا نلاحظ أن التيار الديني المحافظ بشكل عام يشترك فـي نقاط أساسية :

- ليس لهذا التيار مآخذ مقيّدة لتعليـم المـرأة أو عملهـا أو صـور مشاركتها في المجتمع –على الأقل بشكل عام و حتى إن أبدى بعـض التحفظات فهي بنسب متفاوتة ومن حسن الحـظ أن مرجعيـة الـنص الحرفي هنا ليس لها الدور البارز.

- وتعطي فريدة النقاش رأيا في كلا المؤسـستين الـدينيتين المـسيحية والمسلمة فتقول:" أما المؤسستان الدينيتان الرئيـسيتان وهمـا الأزهـر الشريف والكنيسة الأرثوذكسية(ونحن نضم أنفسنا إلى كليهما كمسيحيين إنجيليين) فقد أقرتا بمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في الخلق والطبيعة الإنسانية والتكليف والمسئولية والثواب والعقاب وتأكيدهما على المكاسب والحقوق والمكانة الرفيعة التي تمتعـت بهـا المـرأة بفـضل الإسـلام والمسيحية إلا أنهما يبرران التفاوت بين الرجل والمرأة علـى المـستوى الاجتماعي والدنيوي في الحقوق والواجبات والأدوار بناء على الطبيعـة النفسية والغريزية والتراث السلوكي لكل من الجنسين.."[١٠٦]

ومعلومة فريدة النقاش هنا صحيحة، و نضيف أن تحفُّظ المؤسستين هنا هو رأي للفقهاء واللاهوتيين (ويمكن إضـافة دور الـدعاة الجـدد) ، وطالما أنه (رأي) فهو مازال في حيّـز الاجتهـاد و سـلطة القـانون الوضعي أو العادات و التقاليد والأعراف أو الاستناد إلى حقائق علميـة، أي لم يدخل حيّز التحريم والتحليل استنادا إلى حرفية النص، وبالتالي فإن مناقشة رأي كلا من المؤسستين وارد ومقبول وقابل لأن نتحفظ عليه أو حتى نقوم بتعديله .

[١٠٦]فريدة النقاش، المرجع السابق، ص ٨٣.

- إلا أن الموقف يتأزم وتوضع المحاذير على مكانة المـرأة عنـدما يتصل الموضوع بثلاث نقاط وهي: خضوع الزوجة، وقـضية العثـرة والإثارة، وقضية عدم السماح لها بممارسة التعليم الديني وتولي وظائف كنسية أو الإمامة، وهي اعتراضات تستند إلى حرفية النصوص الدينيـة وتُستخلص منها. و لعل من المناسب هنا أن نعود لما قلناه عـن أصـل الأزمة التي تنشأ من التمييز ضد المرأة ، فهي أزمة تستند أحيانا علـى اعتبارات دينية أو نصوص قانونية و سرعان ما تمتد لتمسك بتلابيـب المجتمع كله

- وقد يقول قائل : فلتغمض المرأة بعض الشئ عن (هذه الثغرات)حتى نغلق الباب الذي يثير المشاكل وخاصة أن هناك من المشاكل مـا هـو أخطر في المجتمع وأولى بتوجيه الجهود لحلها . هذا الرأي له وجاهته ولكن الواقع يثبت أنها ليست (ثغرات) فالثغرات تعني أن التصدي لهـا بالعلاج وارد إن آجلا أم عاجلا ، إنها في الواقع (مداخل) معترف بها وبصحتها و تجد مساندة بالفعل والقول وتجد مرجعيتهـا فـي الـنص الحرفي، وبالتالي فإن وضع علاج لها غير وارد فهذا وضع يجب على النساء أن يصادقن على صحته ، ومن هنا فإن تلك (المـداخل) ليـست هامشية أو ثانوية. هي مداخل رئيسية في حيـاة الأسـرة- الجماعـة- المؤسسات سواء الدينية أم المدنية ..الخ التي يجب أن يظهر في كـل منها مسئول عن (مراقبة الموقف) ومن هنا تتفرع القيود وتتنوّع لأنها ببساطة وبالبديهة لا بد أن تستند إلى تراتبية المكانة التي توفر لـسلطة للمسئول عن (الحراسة والمراقبة) وبالتالي تؤدي إلى تكريس الوضـع التصاعدي ال بين الجنسين فهناك من هو علـى رأس المـراقبين فـي الأسرة والكنيسة والمجتمع من له حق مراقبة الموقف . أي ضبط قواعد

الخضوع وما يلزمها من ممارسات مثل تفرُّد الرجل باتخاذ القـرارات في الأسرة حتى وإن كانت في غير صالحها أحيانا ، بل ويصل الأمـر إلى أولويات وخيارات وأفضليات المرأة بـل ومواهبهـا و إمكاناتهـا وقدراتها التي يحددها لها من تخضع له منذ طفولتها حيث يُرسـم لهـا الطريق الذي يناسب وضع (الحراسة) مـن المـروّجين لخـط فكـري وسلوكي بذاته سواء من الرجال أو من النساء.

- هنا يبدأ (الحُرّاس) في مباشرة مهامهم وللحقيقة فهـم ليـسوا مـن الرجال فقط، فمرة أخرى أعود لفكرة المجتمع بالمعنى الذي اتفقنا عليه (امرأة – رجل – مؤسسات بأنواعها) استنادا إلى النص الحرفي فـي تقييد وتحديد حركة (المرأة) التي عليها ليس فقط أن تخضع في البيـت بل وأيضا أن تمتنع عن تولي وظائف كنـسية- وبالإضـافة لواجبهـا الخضوعي فهي تسبِّب للرجل العثـرة والإثـارة بملبـسها ، أسـلوب كلامها- صوت ضحكاتها- حركتها- مشاركتها فـي الـرأي ... الـخ فعليها أيضا أن تكف عن ما يثير و يعثر الرجل في المجتمع قاطبة فـي الشارع ، في المواصلات (ما عدا العربة المخصـصة للـسيدات فـي مترو الأنفاق حيث يُسمع صوت ضحكاتهن !!!)، و في أمـاكن العمـل وقاعات الدرس..الخ) و هنا قد يكون الحُرّاس نسوة ربما أكثـر تـشدداً من الرجال

- ولنلاحظ أن خضوع المرأة كزوجة وسيادة الرجل كـزوج يتناسـي تماما – إن لم يكن ينفي- كل القيم المسيحية الـسامية عـن المحبـة والتواضع والبذل والخدمة ..الخ سواء كأم أو زوجة أو شـريكة فـي المسئولية ،وهذا واضح في التاريخ الكتابي

-أما منع المرأة من تولي الوظائف الكنسية وهو منعها من (التسلّط) على الرجل (هكذا) فيبدو أن المسيح يختلف تماما عن المسيحيين!!!!!

فنحن لا نعرف أن المسيح ساند يوما فكرة التسلط ، فإذا كنا ننظر إلى الوظائف الكنسية على أنها (تسلُّط) فأنا ليس لدي إلا واحد وهو وجوب إعادة النظر في فهمنا لكلام الرسول بولس وفيما كان يقصده من كلامه عن (التسلُّط) فالوظائف الكنسية موهبة ومسئولية خدمة وهذا ينفي تماما فكرة التسلُّط القائمين على الوظائف " فمن أراد أن يكون عظيما فليكن للجميع خادما" (متى ٢٠ : ٢٦)

- أما موضوع العثرة والإثارة التي تسببّها الأنثى للذَكَر فلا أعتقد أن علاجه يكون ببتر الوجود الأنثوي من وسط الجماعة . ألم أقل أن مداخل الحظر والمنع والتحريم تنبع من الفكر الديني ؟! فالكلام عن الخلاعة والكلام القبيح و الشذوذ الجنسي في الكتاب المقدس لم يقتصر على توجيه سلوكيات المرأة دون الرجل

- المشكلة في كل هذا أن النص الديني هو سلاح وسيف مسلّط على رقاب النساء

فماذا بعد؟!

يبدو أن ما تطلق عليه د. منى فياض "هامش الإرهاب في الأديان"[١٠٧] يحتاج أن نعترف بوجوده بالفعل فيما بين أصحاب الديانات .

وسأقتبس التعبير من منى فياض وأجري عليه تعديلا بسيطا على هذا المفهوم وهو أنني لن أطبقه على الإرهاب بمعنى العنف واستخدام السلاح

---

[١٠٧] د. منى فياض، اقنعة الثقافة العربية، (القاهرة: دار الثقافة، ٢٠٠٦) ص ٤٠.

بل سأطبقه على إرهاب الفكر الديني ، و لذلك ستكون العبارة هكذا " هامش إرهاب الفكر الديني"

قد يُصدم القارئ والقارئة بهذه الملحوظة ولكنها تحمل شيئا من الصحة ، ففي رأيي :

- عندما يتسبَّب الفكر الديني في أخذ خطوات للوراء فيما يتعلق بتطور السلوك البشري بدعوى الاستناد إلى سلاح حرفية النص ؛
- وعندما تجد المجتمعات نفسها تدور في حلقة مفرغة في محاولة لتثبيت مفاهيم لم تعد تصلح لزمن بل لم تعد تقوى حتى على مواجهة الظروف الواقعية التي تضغط عليها ؛
- وعندما نحوّل زمام الفرس الذي هو لجام يكم فمه إلى زينة يتحلَّى بها؛
- و عندما نحكم على كل من يحاول أن يخرج عن هذا السياق رجلا كان أو امرأة وكأنه وقع في دائرة الممنوع والمحظور والمدان دينيا بل والهالك روحيا فإننا لن نكون خارج دائرة الإرهاب الفكري الديني بأي حال
- يبقى أمر آخر وهو المحصلة التي نتوصل إليها مما سبق : إما نعترف صراحةً بأن العلوم الدينية الشائعة بين الأصوليين التي نتفق عليها تختار للمرأة مكانة أقل مما هو متعارف عليه فيما يتعلق بالحريات وحقوق الإنسان والفرص المتكافئة كما تتعارف عليها القوانين الدولية وحركات تحرير وتمكين المرأة و غير ذلك من مؤسسات حديثة ، وهنا علينا أن نعترف صراحة بأننا مجتمعات دينية في المقام الأول وعلينا أن نقبل نتائج هذا التصور إن لم يكن ممكنا أن نتعامل معه لتطويره :
- فنقبل أن نتخلَّف عن بقية المجتمعات الحديثة احتراما لأدياننا ، فتقدُّم المجتمعات لا يحتمل تقييد حركة واستبعاد كفاءات بناء على نوع الجنس ،

وليس هناك مكان لتخلّف جنس عن آخر فالحركة للأمام ليست رفاهيـــة أو أمر هامشي بل أمر حتمي وواجب و لازم ، وبالتالي فإن جهد ١٠٠% مـــن أبناء المجتمع وليس ٥٠% مطلوب ، فأن يستغني مجتمع ما عـــن مواهـــب وملَكات وخبرات المرأة أو حتى تقليصها وتهميشها تفاديـــا للوقـــوع فـــي محظورات قد تقع وقد لا تقع معناه تعطيل طاقة يحتاجهـــا المجتمـــع أشـــد الاحتياج ، هذا إذا أراد أن ينهض، وما احتفال جامعة القاهرة بمئويتها ببعيد حيث برزت مكانة الكثير من علماء الجامعة و بينهم ســـيدات و لاشـــك أن غيابهن كان سيجعل الأداء أقل بكثير.

- بل ونبدأ في ترتيب حياتنا بناء علـــى هـــذا المعيـــار فنـــضع أنظمتنـــا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بناء على هذا التصور
- و نضع حلولا لمشاكلنا وتصورا لقضايانا بما يناســـب تـــصوراتنا ودون الحاجة لاستعانة بمن يخالفوننا الرؤى فنكف عن الاصطدام والصدام
- كما نضع سقفا لطموحاتنا وتطلعاتنا للرقي والتقـــدم بنـــاء علـــى هـــذا التصور ،و هذا ليس تهكما ولا نظرة تشاؤمية بل علينا أن نكون واقعيـــين ونضع أولوياتنا لحياتنا بمنتهى الواقعية والجدية ومنتهى التقبـــل للنتـــائج حتى لا نظل نعاني من الازدواجية واتهام غيرنا بما لا نرضاه لأنفسنا مثـــل المادية والتبرج والانفلات ..الخ فكل يحيا بحسب مـــا يليـــق بـــه ونـــريح ونستريح
- أو نبدأ من جديد في صناعة فقه ولاهوت طبقا لآراء المدارس المنفتحـــة والمستنيرة

دور الكنيسة في قضية مكانة المرأة:

و هنا نتساءل عن دور الكنيسة في حياة المرأة، ونبـــدأ بنظـــرة ســـريعة للتأثير المتبادل بين الكنيسة والمجتمع

- كان المجتمع المصري في القرن ١٩ يأخذ خطوات نحو التقدم وظهرت شخصيات نسائية رائدة لها دور بارز في مجال السياسة والعمل الاجتماعي والأدب ، وكان للكنيسة أيضا دور ريادي حيث تبنّت الكنيسة الإنجيلية في مصر قضية تعليم الفتاة في مصر في النصف الثاني من القرن ١٩ ، كما تكوّنت مدرسة لتخريج مبشرات وتأسست مدرستان لتخريج ممرضات، كما أعدت الكنيسة في القرية برامج لتعليم وتدريب المرأة كأم و مربية ، ووضعت برامج قيم وآداب الأسرة في مدارسها التابعة لها قبل القرن العشرين. و شاركت النساء المسيحيات و الإنجيليات بصفة خاصة في العمل السياسي
- في الستينيات من القرن العشرين-حيث ساد عدم التعصب الديني - وفى ظل الاشتراكية شاركت المرأة في الوزارة وبالتالي شاركت في مجالس السنودس الإنجيلي وانتعش دور المرأة
- مع السبعينيات من القرن الماضي ظهر التطرف الديني وانحسر دور المرأة وأيضا تقلص دور المرأة في الكنيسة.

و يبدو أن هناك تأثير متبادل بين الفكر الديني والمجتمع أو العكس ولكن للأسف لأنه تأثير غير محسوب بمعنى أنه تلقائي غير متفق على حركته فلذلك يقوى تبادل التأثيرات السلبية أكثر من الإيجابية سواء من المجتمع للفكر الديني أو العكس نظرا لزيادة سطحية الثقافة والاندفاع وراء الكلمات التي تدغدغ المشاعر، وتريح من عناء التفكير و مسئولية التطوير إلى العمق

الصورة الحالية في كنيستنا الإنجيلية المصرية : لا تقوى الكنيسة على تبنى قضية رسامة المرأة قسا لأن نص دستور الكنيسة لا يسمح وذلك بحجة وجودنا في مجتمع تقليدي مسيحي أرثوذكسي ومحافظ إسلامي،

كما لا تفكر في إعطاء المرأة مركزا كنسيا رسميا ، وما يُتاح لها أحيانا مجرد مشاركة بدون عضوية في المجالس المحلية في الجهات الكنسية والسنودسية ، رغم أن الكنيسة تشعر بدور المرأة الواسع في الخدمة، و مع ذلك فأمام التحدي فقد تمت رسامة سيدتين في عام ١٩٧١ كشيخات في الكنيسة ثم استغرق الحوار أكثر من ربع قرن حين أقر السنودس رسامة المرأة شيخا عام ٢٠٠٦ . والسؤال : ما الفرق بين وظيفة الشيخ المدبِّر ووظيفة الشيخ المعلِّم " أي الشيخ والقسيس"

- نخلص من هذا أن الفكر الديني من المصادر الأساسية للتشريع القانوني و للثقافة في مصر ، الذي يتمثل العقيدة ويؤثر ويتأثر بالتقاليد والموروثات طالما أن النص الديني سواء في المسيحية أو الإسلام يؤخذ حرفيا عند نسبة عالية من الشعب فإن المرأة توضع في موضع أقل من الرجل نتيجة لهذه الرؤية الدينية الموروثة
- فإذا أضفنا إلى ذلك أن القوانين المصرية تتضمن نصوصا عديدة تمثل تكريسا للتمييز بين المرأة الرجل منها قانون الأحوال الشخصية في بعض جوانبه وأيضا نظام الشرع والقضاء وقانون العقوبات، فإن القضية تصير في حاجة ملحّة إلى دور فقهي و لاهوتي منفتح خاصة بعد ظهور دور المجلس القومي للمرأة الذي يمثل نوعا من الصحوة في هذا المجال
- **والسؤال الآن يدور حول دور رابطة السيدات التابعة للكنيسة الإنجيلية و هي جزء من سنودس النيل الإنجيلي:** فقد تكونت الرابطة في ١٩٥٦ومارست أنشطتها في حدود المشروعات الخيرية مثل إنشاء بيت للمسنين أو عقد مؤتمرات نوعية للمرأة، والتمويل لمشروعات السنودس . و الصورة الآن تبدو كأنها تمارس نشاطا أقل كما أن التدريب الذي يُعقد للسيدات لدراسة اللاهوت لا يستفاد به بصورة فعالة ، فالخريجات ليس لهن دور محسوس في الكنيسة المحلية إلا في الحالات الفردية التي تظهر فيها إحداهن قدرة متميزة

- وعموما فكلا من الكنيسة و رابطة السيدات والمجلس القومي للمــرأة يحتاج إلى برنامج عمل واضح قابل للتنفيذ بناء على واقع القــضية فــي مصر وليس بناء على ما يدور في مجتمعات أخرى و ثقافات مغــايرة ، فالواقع يقول إن القضـايا التي يدور حولها النقاش ربما لا تمثل واقع قضية المرأة في مصر .وختاما ، فإنني أشعر أنني حاولت أن أضع ملف قضية المرأة في ضوء ما استجد وقد يحتاج أن تُضاف إليه بعض المــستندات ، سواء من خبرة إيجابية أو سلبية أو دراسة اتجاه بعينه، لكنـــي أرجــو أن "نفتتح الجلسة لنبدأ المرافعة " فليتقدم كل ذي صفة ومصلحة ويدلي بدلوه.

هذا الكتاب هو محاولة لإلقاء نظرة

أوسع وأشمل على قضية المرأة

وذلك بإقامة علاقة بين محاور القضية

ثم طرح القضية بجملتها عليكم

أنتم : سيداتى وأنساتى وأيضا سادتى

فالقضية قضية المجتمع فى المقام الأول

بدون تحيز لجنس ضد آخر

فالمرأة ليست غريما أو ضدا

وليست منافسا أو مزاحما

(فهو وهي) معا يعنى (إنسان)

- الذي لايكمل الا (بهو وهى)
- والذي لا يرتفع إلا (بهو وهى)
- والذي لا يسعد إلا (بهو وهى)

